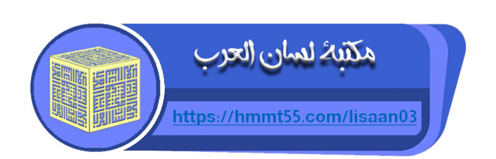
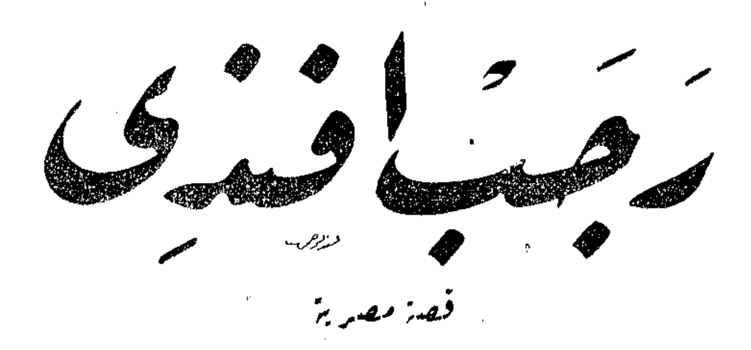

رجب افندي
تأليف
محمود تيمور

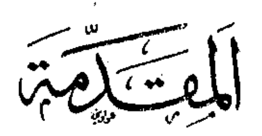

مكتبة لسان العرب
https://hmmt55.com/lisaan03

محمود تيمور



مُزين بصور عديدة من صنع حسين افندى فوزي الرسام

بسم الله الرحمن الرحيم



رجب افندى قصة عصرية مصرية ذات موضوع بسيط ، كثيراً ما يتكرر حدوث امثاله فى حياتنا اليومية . حاولت فيها أن أحلل نفسيات بعض أفرادنا من الطبقة الوسطى والحقيرة وأن أكشف الستار عن جانب من جوانب بيئتهم . فالقصة صفحة من حياتنا النفسية والأجتماعية .

وقد نُشرت على عشرة أقسام في « البلاغ الأسبوعى » الأغر فى صيف عام ١٩٢٧ . ولكننى صححتها بعد ذلك وحذفتُ منها ما وجدته لا يتفق ومذهب التجديد والتطور للقصة المصرية حتى أصبحت بشكلها الحاضر تختلف اختلافاً كبيراً عما نُشر قبلاً .

واعترافا بالجميل اقدم وافر شكرى لصديقىّ الفاضلين السيدين « زكى طليمات » و « طاهر راشد » على ملاحظاتهما القيّمة التى أبدياها لي عن هذه القصة وعن غيرها ، مما كان له أثر كبير فى اصلاحها .

وفى الختام أرجو من القارىء الكريم أن يغض النظر عما يصادفه أثناء مطالعته من نقص أو زلل . وموعدنا ان شاء الله فى كتابي القادم : « الحاج شلبي وأقاصيص أخرى » .

ليزان . سويسرا مايو سنة ١٩٢٨

محمود تيمور



رجب افندى

— ١ —

رجب افندى أو الشيخ رجب شخص ليس افنديا صرفا ولا شيخاً صرفا . يلبس الجبة والقفطان والطربوش . تارة يسميه بعضهم الأستاذ رجب أو الشيخ رجب . وطوراً يدعوه البعض الآخر رجب افنــدى . ومنهم من يطلقون عليه وهم متحيرون اسم الشيخ رجب افندى . أما العامة من معارفه فــلا يعرفونه الا بهم رجب افندى . واذا سألته عن اسمه وعما يجب أن ينادوه به نظر اليك بحيرة ولم يستطع أن يجيب كأنه لا يعرف حقيقة هــذا الاسم . له جسم نحيف بقامة متوسطة ، ووجه شاحب مخطط بتجاعيد الهرم المبكر ينم عن دعة وهدوء واستسلام ، ولحية صغيرة كثيراً ما ينزع شعيراتها بلا قصد أثناء تعمقه في التفكير . يبلغ من العمر الخامسة والثـلاثين ويعيش وحده فى طابق صغير بجهة سيدنا الحسين . نفور بطبيعته من المجتمع ، راغب فى الزهد وله ميل فطرى وغرام لا حد له بالتدين . اذا دخلتَ مسكنه الصير فشعرتَ بوحشة تملأ نفسك يشعر بها المرء اذا اجتاز مكانا خربا مظلما . فاذا

دنوتَ من باب حجرته الخصوصية وسمعته يُرتل القرآن بأنغام حلوة هادئة بدأتْ تلك الوحشة التي اعترتك تتبدد ووقفتَ صامتا بخشوع تسمع آى القرآن الكريم يرددها ذلك المتعبد الصالح فاذا دخلتَ الحجرة وغمرتك ظلمتها وهدوءها وهبَّ عليك هواؤها الرطب وميزت أثاثها البسيط النظيف ايقنتَ أنك فى جامع من جوامع الضياع بعيد عن الزخرفة والفن. في هذا المسكن يعيش رجب متمتعا بعزلته وزهده . يبرح فراشه كل صباح مبكرا ليشنف سمعه بأذان الفجر ، يستنشق نسيم الصباح العليل و يتمتع بذلك الهدوء الجليل ثم يصلى فرضه و يعكف بعد ذلك على مطالعته وتآليفه .

نشأ فى منزل عمه الشيخ أبى المحاسن بعد ان فقد أبويه . وتعلم علومه الاولية فى إحدى المدارس الابتدائيـة الراقية حيث تركها قبـل أن يتم دراسته فيها ، مفضلا الانزواء فى ركن من أركان منزل عمه . حسبه فيـه أن يعيش عيشة المتصوفين الزهاد . وقد كان معروفا بين رفاقه فى المدرسة بنزعته الدينية المتطرفة فكانوا يعارضونه ويشاكسونه فى أمور الدين رغبة منهم في اثارة غضبه فكان ينسى نفسه بالرغم منه ويخرج عن طبعه الهادىء فيهاجمهم بعناد ويعاقبهم بلا رحمة . وكان الرفاق يخشون بطشه

ولكنهم كانوا يضمرون له المحبة والاحترام . كثيراً ما كان يختلي باستاذ الديانة يحادثه محادثة الند للند في تفسير الايات القرآنية . وكان الاستاذ يجله ويعامله معاملة خاصة ، يعتمد عليه فى تعليم التلاميذ مبادىء الوضوء والصلاة وتفهيمهم بعض الدروس . وكان رجب يجمع التلاميذ فى فناء المدرسة — فى فترة الظهر — ويذهب بهم بالرغم منهم الى المغسل ليتوضئوا ثم الى المصلى ليؤدوا فريضة الصلاة جماعة خلف الامام ، أستاذ الديانة . وكان يجد مشقة كبيرة فى جمعهم اذ كانوا يهربون منه . وطالما تذمروا جهاراً لاعتدائه على حريتهم فى ساعة من أقدس ساعات لعبهم .

وقد أراد عمه أن يزوجه من احدى بناته فرفض الزواج . ووجد فى هذا الرفض فرصة تعينه على الانفصال اذ شعر بحاجته القصوى الى الهدوء الشامل الذى لا يجده فى منزل عمه . وذهب من وقته الى جهة سيدنا الحسين حيث أجّر طابقه الصغير .

يمضي رجب أغلب أيام الاسبوع فى منزله لا يخرج منه . وتقوم بخدمته الضرورية امرأة عجوز تكاد تكون ضريرة فقدت احدى عينيها وتشكو دائماً من أمراض تصيب العين الأخرى . تشتغل بجمع القاذورات وتدعى (أم نبوية الزبالة) .



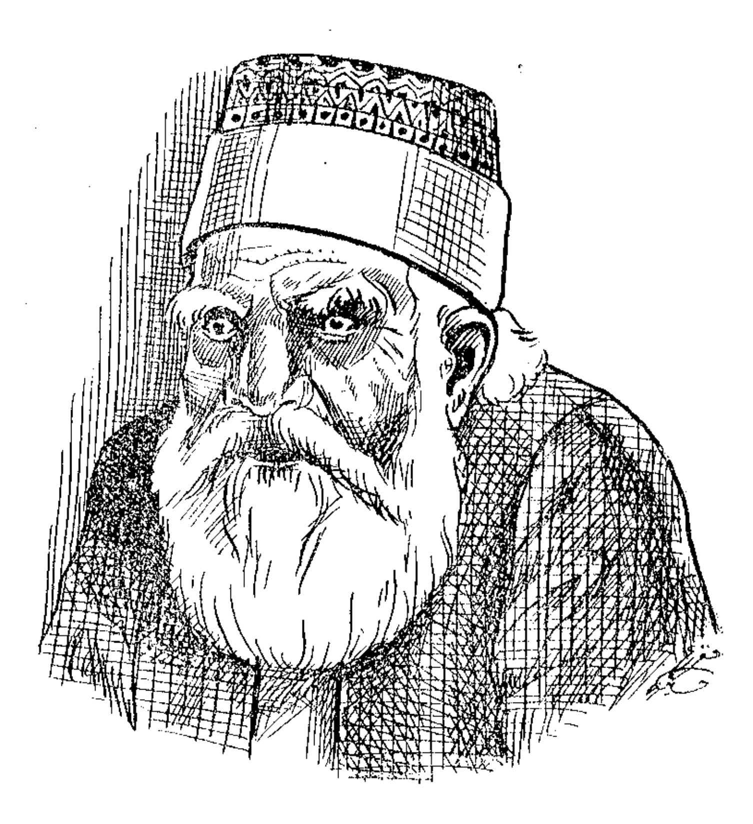
أم نبوية

وهى امرأة مهدمة النفس والجسد تلبس دا عًا السواد وتستعمل الطرحة نقاباً لوجهها حشمة ووقاراً .

أحبها رجب وبرّها بنقوده وطعامه واحبته هى أيضاً وأخلصت له إخلاص الام لولدها .

اذا خرج رجب من (مكان عبادته) يذهب عادة الى خان الخليلى عند صديقه الشيخ عبد الوهاب المكي بائع المباسم (الافمام) والمسابح ، يمضى الوقت معه يقرأ كتاب البخاري أو دلائل الخيرات . وقد يأتى بعض مجاورى الازهر وجماعة من الحجازيين — منهم الفقير الذى يستجدى ومنهم التاجر الذى يتبادل مع الشيخ بعض المتاجر الصغيرة — يشاركون رجباً فى قراءته أو يستمعون له ، يشربون الشاى العطرى امام الحانوت ويزاحمون المارة فى غدوهم وراوحهم .

وحانوت الشيخ عبد الوهاب المكى صغير لا يسع أكثر من مقعدين ، قديم لكنه نظيف كصاحبه . أما الشيخ نفسه فشريف من أشراف الحجاز أناخ عليه الدهر فى بلده فرحل الى مصر واستقر فى خان الخليلى يتاجر فى المسابح والمباسم والشاى . يروى عن نفسه أن جده كان شريفاً من أمراء الحجاز . يمتاز بشعره الغزير الكث وحاجبيه المهدلين . وهو مع بشاعة منظره دائم التلطف والابتسام ، حاو المحضر ، مؤانس كريم الاخلاق .



الشيخ عبد الوهاب المكى

— ٢ —

عاش رجب على هذا المنوال حقبة من الدهر قرير العين بعزلته ، منعما بإيمانه ، لا يكدره مكدر ، حتى وقع له حادث بسيط في نوعه كان له تأثير عظيم في مجرى حياته كلها .

ذهب مرّة الى حانوت الشيخ عبد الوهاب المكي كعادته . وبعد أن شرب الشاى وقرأ فى كتاب البخارى ودلائل الخيرات حضر مجاور فقير رث الهيئة يدعى الشيخ عبد الحى ، يتناول الاحسان من الشيخ المكي ومن رجب إفندى فى بعض الأحيان . روى لهما خبراً هاماً عن شخص من مُحَضّرى الارواح يقوم بأعمال غريبة تكاد تشبه السحر . يستطيع أن يحضّر الارواح ويستكتبها أجوبة على أسئلة يلقيها عليها . وقد ذاع صيته في القاهرة كلها وأصبح بيته كعبة الطلاّب والسائلين ، يقصده من يريد الاتصال بعالم الموتى الرهيب . وجعل يفيض لهما المجاور بما يعلمه عن هذا الاستاذ وأعماله السحرية . فصادف حديثه الخلاب هوى فى قلب رجب جعله يصغى اليه بانتباه تام . ثم أخذ يسأله عن مسكن الرجل

وكم يتقاضى أجرة للزيارة وأجرة للتعليم وغير ذلك مما كان راغباً في معرفته . وقام المجاور أخيراً وأعطاه رجب ما فيه القسمة من النقود . أما الشيخ عبد الوهاب المكي فاكتفى بتقديم كأس الشاى له في أول الزيارة ثم منحه في نهايتها ابتسامة عذبة ولفافة من التبغ

والاستاذ الروحانى السالف الذكر رجل أرمني يدّعى أنه أسلم رسمياً منذ سنين فى المحكمة الشرعية وأدّى فريضة الحج ثلاثة أعوام متواليات . نشأ في البيئة المصرية الصحيحة فاكتسب لهجتها وتطبع بعوائدها . اتخذ له مكتباً كمكتب المحاماه فى طابق صغير بحى السيدة زينب ، زينه من الخارج بيافطة كبيرة مكتوب عليها بأحرف الثلث والرقعة :

الحاج أحمد حلجيان

« سمسار عقارات وأطيان وقومسيونجي لكافة بضائع أوروبا »

كان فى الأصل سمساراً للعقارات والأطيان ووسيطاً لجلب كافة أنواع البضائع . ولكنه فشل فى مهنته واشتغل فى تحضير الأرواح اذ وجدها صناعة رائجة لاتتطلب منه مجهوداً شاقا .

ورجع رجب الى منزله وهو يفكر كثيراً في أقوال المجاور وحديثه عن الحاج أحمد حلجيان الاستاذ الروحاني الكبير . وجعل يستعيد رواياته ويتمثل حوادثها فى مخيلته . ثم أخذ يرسم مشروعا خاصاً لزيارة مكتب هذا الاستاذ وتحضير روحَيْ أمه وأبيه . ثم يتفق معه بعد ذلك على دراسة هذا العلم دراسةً وافية ، وشعر بسرور يخالطه بعض الخوف والحزن حينما فكر فى تحضير روحَيْ أمه وأبيه . وكان قد وصل الى باب منزله فصعد درجات السلم فى ظلام دامس لأن الشمس كانت قد غربت منذ نصف ساعة . فشعر بخفقان قلبه وداخله رعب شديد وخُيل اليه أن أحداً يتبعه فالتفت بذعر فلم يجد غير الظلام . ولكنه شعر بارتجاف مفاصله وأحس من نفسه رغبة شديدة في الصراخ مستنجداً . وكان يجري قافزاً على درج السلم فبلغ طابقه وهو يلهث من التعب اذ لم يكن متعوداً على حياة الحركة والنشاط . وأشعل المصباح بسرعة بيد مرتجفة وقلب مضطرب وهو يتمتم مستعيناً بالله من الشيطان الرجيم . وأضاء المصباحُ ردهته بضوء ضئيل اطمأن له قلبه فى بادىء الأمر . ولكن سرعان ما عاوده خوفه واضطرابه اذ كان

النور الضعيف المنبثق من المصباح لا ينير له الا جزءاً صغيراً من الطريق الذى يسير فيه ، فضلا عن أن هذا النور الضئيل يرسم من عادته على الجدران و على أرض المكان خطوطاً ودوائر تشبه الأشباح . وسار رجب قاصداً غرفته ومصباحه يهتز فى يده ولكنه بغتة توقف اذ سمع صوتاً غريباً خارجاً من حجرته . وأنصت فاذا الصوت واضح واذا به حقيقة لا خيال . فاشتد ارتجافه وتقلص وجهه وجعل يستعيذ بالله من الشيطان بصوت عال ارهاباً لمن فى الحجرة من جن أو انس . ولكن الصوت لم ينقطع ، وكان يشبه حشرجة الأموات . فارتد الى الوراء واستند الى جدار الردهة وقد شعر بوهن قوته من فرط رعبه . . . « من يكون في حجرته ؟ أهو روح خبيثة جاءت تنكل به ؟ أم روح أمه أو أبيه جاءت لتسأل عنه ؟ ولمَ ذلك الصوت الذى يشبه حشرجة المذبوحين ! أيوجد شخص يسلم الروح في حجرته ؟ ومن أين أتى ؟ » . وتزاحمت عليه الافكار والصوت لا ينقطع . وتكلم بعد مجهود كبير فاذا صوته خشن متقطع يخرج بصعوبة من حلقه الجاف وقال :



مَنْ .. مَنْ هنا .. تكلم من أنت ؟ . . .

فلم يجبه أحد وظل الصوت على حاله الاول لا ينقطع . فصرخ صرخة رعب شديدة وقد وجد نفسه في موقف لايستطيع فيه النكوص على أعقابه هارباً أو التقدم الى الامام مهاجماً . وجعل يردد بصوت مبحوح مرتجف :

— اليَّ اليَّ يا أهل المروءة . . يا أهل النجدة . . أكاد أهلك . اليَّ . . اليَّ .

فاذا بصوت أجش يجاوبه من الحجرة قائلا :

— من الذي يزعق هكذا . من هنا ؟

فأنصت رجب افندى وقد اطمأن قليلا . ثم تشجع عن ذى قبل وقال :

— أنا رجب . رجب . من أنت ؟

وسمع حركة في حجرته ثم شاهد بعد هنيهة شبحاً ملتفاً بالسواد يسير ببطء خارجاً من الباب . فتفرس فيه وهو ما زال يغالط نفسه ثم صرخ صرخة الاطمئنان والفرح قائلا :

— أم نبوية ! ! الحمد لله يارب . . ما هذا ياشيخة . كدت أهلك من الرعب . . . ليس من عادتك أن تتأخرى لهذه الساعة فى المنزل . ولكن خبريني ماهذا الصوت الغريب

كنت نائمة يا ابنى

واقتربتْ منه بتمهل وهى تدعك عينيها بأصابعها . ثم أخذتْ منه المصباح ونظرت في وجهه فهالها اصفراره فقالت له برعب :

— ما هذا . هل انت خائف يا بنى . وجهك شاحب للغاية باسم الله الحفيظ .

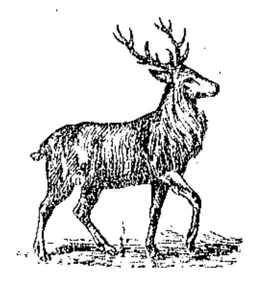
فأسند يده الى كتفها . ودخل الحجرة متمهلا . ثم طلب منها بصوت خافت أن تأتيه بقلة المياه ليشرب منها . فأتته بها فجعل يكرع منها بشغف عظيم حتى ارتوى . وجلس على فراشه منهوك القوى يشعر بكسل وضعف شديدين ورغبة كبيرة في النوم . وسألته أم نبوية عن سبب رعبه فاخبرها خبر المجاور والحاج احمد حلجيان ورغبته في الذهاب لتحضير روحَىْ أبيه وأمه . فدنتْ منه وقالت له :

— انت محتاج لأن ارقيك . مضت مدة طويلة لم أرقك فيها .. لا تفكر في حلجيان ولا ملجيان . ونم مستريحاً هادئاً .

فصدع بامرها صدوع الطفل باوامر أمه . ونام بملابسه على الفراش . وبدأت أم نبوية رقيتها قائلة :

— الأوّلة بسم الله والتّانية باسم الله والتالته حصوه في عين اللى ما يصلي على النبي ...

وكان رجب افندي يسمع تلك الرقية بعذوبة وانشراح . فأقفل جفنيه وسبح في أحلام وذكريات جميلة كان وجهه المشرق الباسم ينم عليها . ثم انتقل رويداً الى عالم النوم وهو يشعر براحة جسدية ونفسية لم يشعر بهما قبـلا . ولما انتهت أم نبوية من رقيتها جعلت تبصق على الارض متمتمة باللعنات على الشيطان ثم غطت رجب افندي بالالحاف ونقلت المصباح الى الخارج ثم جلست متربعة على حافة الحصير بجوار فراشه .



— ٣ —

ونام رجب نوماً عميقاً . وفي الصباح استيقظ مبكراً ، وكان نور الفجر قد بدأ ينتشر في السماء فيفسح للشمس مكانها قبـــل الاشراق . فترك فراشه وذهب الى النافذة وبدأ ينظر الى السماء الصافية مبتهجاً مسروراً . ثم أدى فريضة الصــلاة وقرأ ما تيسر من القرآن والاوراد . وجاءته بعد حين أم نبوية بالطعام مع قهوة الصباح فاكل بشهية زائدة . وأخبرها بأن رقيتها كان لها تأثير السحر على نفسه فنام ليلة أمس نوماً هادئاً جميلا ، لم يذق مثله منذ أيام ، قام على أثره متعافياً نشطاً .

وأمضى رجب الشطر الاول من يومه على أحسن حال . وبدأ ينسى حديث الارواح وأخبار حاجيان . . ولــكن رغبة مجهولة أخذت تحوم حول رأسه تريد اقتحامه فهي تدنو ثم ترتد ثم تدنو ثانية بعناد ومكابرة . وأخيراً أفلحت في اقتحام دماغه فيهوادة ولين ومن ثم أخذت تتسع شيئاً فشيئاً محتلة بالتدريج مناطق تفــكيره .

ولما بدأت الشمس تغرب شعر بانقباض ووحشة . وجاءت أم نبويه تسأله هل يطلب شيئاً . فشكرها وطلب منها أن تنصرف اذا

أرادت ، وأن لاتتعب نفسها من أجله . وكان في صوته رنة متكلفة تخفى حقيقة رغبته ، لم تغب عن أم نبوية فعرضت عليه مبيتها هذه الليلة لترقيه وتؤنسه فقبل في حياء وارتباك .

ومضت ثلاثة أيام ورجب هادىء هدوءاً ظاهريا ، يحس شعوراً غامضاً يسبب له الانفعال والضيق . ولازمته أم نبوية طول هذه المدة فقامت على خدمته باخلاص وحنو . وكان اليوم الرابع يوم الجمعة فذهب ليؤدى الصلاة في جامع سيدنا الحسين كالمعتاد . وقابل هناك الشيخ عبد الوهاب المكى فسلّم عليه الأخير بالبشاشة والتهليل وأخبره أن الشيخ عبد الحى الأزهرى جاءه عدة مرّات يسأل عنه ، يريد أن يفضى اليه بأخبار جديدة عن الحاج حلجيان محضّر الارواح . فاذا رغب فى مقابلته لسماع هذه الاخبار فليحضر الى الحانوت عصر اليوم حيث يجد الشيخ منتظراً اياه . فظهر الارتباك على وجه رجب واخفض رأسه صامتاً . فسأل الشيخ المكى عن سبب سكوته فأخبره بحيرة وانفعال بأنه لايستطيع مقابلة الشيخ عبد الحى لانشغاله هذه الايام بتأليف رسالته .

ورجع الشيخ المكى الى حانوته بعد الصلاة وهو حامل

غذاءه فى منديله وقد عزم أن يخبر الأزهرى بما سمعه من رجب ..
ولما وافى العصر استيقظ الشيخ من نومه وفتح حانوته . وبعد أن
توضأ وصلى وتناول قهوة العصر خرج فى الطريق وجلس بجوار
الباب يهش الذباب بمنشته . وبعد قليل جاء الشيخ عبد الحى يهرول
فى جلبابه . ولما استقرّ به المقام أخبره الشيخ المكى أن رجباً لن
يقابله اليوم . وروى له حديثه معه فى الجامع . فظهر الاستياء على
وجه الازهرى وصاح غاضباً :

— لقد أضاع علىّ فرصة ثمينة بسبب تخلفه عن الحضور

— ولِمَ ذلك ؟

— أنا رجل فقير كما تعلم وليس معى ما أنفقه على دراسة
تحضير الأرواح ، التى شُغفتُ بها شغفاً كبيراً . ولكن الاستاذ
حلجيان قَبِل أن يعلمنى بلا أجر اذا انضم معى شخص يدفع نفقة
التعليم لنفر واحد . وكنت أؤمل أن يكون هذا الشخص رجبْ
أفندى لِمَا بدا لى من اهتمامه بأمر تحضير الأرواح ... والآن
ضاعت الفرصة وعلىّ أن أبحث على شخص آخر .



الشيخ عبد الحى

* * *

والشيخ عبد الحى أزهرى فشل فى دراسته ، مصاب بلوثة الفلسفة الروحانية والبحث عما وراء الطبيعة . فلاّح من أبناء الريف ، له جسم ضئيل ، اذا سار أمامك خلته هيكلا عظمياً مرتدياً ملابس الاحياء . تنبت فى وجهه لحية جرداء كما تنبت الحشائش البرية في الصحراء .

* * *

وفيما كان الشيخان يتحادثان اذ أبصرا برجب آتياً على مهل

فدهش الشيخ المكى لذلك . وقام الشيخ عبد الحى فرحا وهلل بالقادم مسلماً .

وجلس رجب بجوار الشيخ المكى وقال له :

— حضرتُ يا أستاذ لمسألة هامة ، لولاها ما فارقتُ كتبى وأوراقى فقد كنتُ مشغولا فى بحث لذيذ عن الزهد والتصوف .

ثم أخرج من جيبه مسبحته القديمة ونثر حبّاتها على مائدة الشاى وأتم كلامه قائلا :

— هذه مسبحة مفككة ليس عندى سولها . فهل لك أن تتكرم باصلاحها ؟

فابتسم الشيخ عبد الوهاب وجمع حبّات المسبحة ، يعدّها واحدة واحدة ويفحصها فحص خبير ثم قام الى حانوته لينظمها من جديد ويضع بدل الحبّات المفقودة ما يعادلها مما عنده . وفى هذا الوقت أخذ الشيخ عبد الحى يحدث رجبا باسهاب عن حلجيان ويحرضه على زيارته والتتلمذ عليه .



— ٤ —

لما خرج رجب من الجامع بعد أداء فريضة الجمعة كان معتزماً حقاً الاعتكاف بقية اليوم في منزله يؤلف رسالته . فبعد أن تناول طعام الغداء تمدد على فراشه واستغرق فى النوم فرأى حلماً غريباً : رأى كأنه فى منزله القديم الذى نشأ فيه صغيراً ، جالساً على بساط الردهة وحوله أشخاص عديدون من نساء ورجال لا يعرف منهم الا عمه الشيخ أبا المحاسن وعمته زوجة الشيخ . وكان بالقرب من عمه رجل معمم ذو لحية سوداء غزيرة الشعر ، يتوكأ على عصا بيضاء ويرتدى جبة بيضاء . وسمع عمه يكلمه بصوت مرتجف حزين ، فعلم من هذا الحديث أن هـذا الرجل « والده » ولم يكن يتذكر من ملامحه وشكله غير لحيته السوداء . وشاهد الجمع يتكاثر والازدحام يزداد وشعر باختناق تنفسه . ورأى كأن والده يشير اليه بالحاح يريد محادثته ، ولـكن عبثا استطاع رجب أن يجيبه وان يقصد الى الجهة التي كان فيها لان قوة مجهولة كانت تعمل على تفريقهما وابعاد الواحد عن الآخر واختفى كل شيء بعد لحظة . ولـكن تنفسه ما زال على حاله الاول مضطربا مختنقا . وكأنه انتقل الى مكان مجهول يغمره الظلام الحالك .. وشاهد فى هذا الظلام وجهاً غريباً بلحية صفراء طويلة ، يتبسم محرّكا عينيه

حركات غريبة ، ثم أحاط بذلك الوجه اطار كأطار الصور القديمة وجعلت يد مبهمة تكتب عليه بعض الحروف فاذا هى فى مجموعها « الحاج حلجيان » . ثم ظهر حول الاطار بعض أشباح بيضاء لم



﴿ وشاهد فى هذا الظلام وجهاً غريباً ﴾

يستطع رجب أن يميزها ، كانت تحوم حائرة فكأنها ترقص برعب ثم كثرت الاشباح رويداً رويداً حتى ملأت المكان . وبغتة اختفى كل شيء . وازداد اضطراب تنفسه وشعر كأن هناك يداً خفية أمسكت برقبته وجعلت تضغط عليها ببطء وشدة . فجحظت عيناه وأراد الصياح فلم يخرج صوته من حلقه . وبدأ يجاهد فى سبيل خلاص نفسه من تلك اليد المجهولة . وكان صراعا صامتا هائلا . . . واستيقظ فزعا من النوم فرأى نفسه يتقلب على حصير الغرفة ووجد احدى يديه قابضة على عنقه بقوة شديدة

جلس رجب على السجادة يتنفس تنفساً متقطعاً ويداه ترتجفان . ثم زحف الى جهة النافذة وأخذ القلة فكرع منها بضع جرعات شعر على أثرها ببعض الراحة . ورجع الى مكانه وهو يجفف وجهه ورأسه المبللين بالعرق البارد . وكان أثناء ذلك يردد قوله « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أعوذ بالله من ابليس اللعين » . ولما أخذ قسطه من الراحة قام وتوضأ وصلى العصر وفتح المصحف الشريف فرتل آيات من آياته الكريمة بصوت غير منتظم ثم قام الى المائدة فوضع عليها دفاتره وأقلامه معتزماً أن يشتغل بالتأليف بقية يومه . وبدأ يكتب فاذا القلم يهتز فى

يده لا يخطّ الا كتابة عوجاء سقيمة . وجعل يجمع فكره المشتت فاذا بافكاره عاصية متمردة تفلت من رأسه هنا وهناك فلا يستطيع ضبطها . وأخذ بعض الكتب يقرأ فيها فوجد بعد مدة طويلة انه لم يقرأ الا أسطراً قليلة واذا به يهيم في عالم الخيالات غير المرئية . وأخيراً ناجى نفسه بحدة قائلا :

— وأخيراً ... ! ألا أستطيع العمل . يجب أن أؤلف . يجب اتمام الفصل الذي بدأتُه .

وأمسك القلم وعصر مخه وبدأ يكتب ما يأتى :

« الذات الالهية العليا محجوبة عن الابصار ، كائنة في كل زمان ومكان ، فى الهيولى منذ الازل وفى النهاية الى الابد . الذات الالهية ... »

وتوقف عن الكتابة وجعل يقضم القلم بأسنانه . ثم بدأ يطلق العنان لخيالاته . فاذا به يناجي نفسه قائلا :

— وهل حقاً يريد أبي أن أحادثه . ولماذا يا ترى . لا أدرى لذلك من سبب مطلقاً ... ربما كان راغباً في شيء . . . يشتهي شيئاً ... من يدرى . .

ثم نظر الى الصفحة وبدأ يتمم ما كتب فاخرج القلم من بين أسنانه وقد كاد يحطمه . وشرع يكتب :

« ... الذات الآلهية المفروض على الانسان تبجيلها ليس لها كيان ولا جسم ولا رسم ولا وصف ولكنها الـكل فى الـكل ، تغمر الارض والسماء بنورها وحكمتها وشرعها و . . . »

وأدخل ثانياً القلم بين أسنانه ورجع الى قضمه وهو يناجى نفسه قائلا :

— وهل من الضرورى أن يكلمنى واكلمه ... وكيف يكلمنى ... أتهتم الارواح بمن على الارض . . . ولِمَ تهتم . . . ألم اشاهد الذبابة الزرقاء فى الاسبوع الماضى تحوم حولى طول اليوم . ولمّا سألتُ عنها الشيخ المكى أخبرني بانها روح من أرواح موتاى . . . روح امى أو روح أبى مثلا . . . من يدرى . ربما كانت روح أبى ...

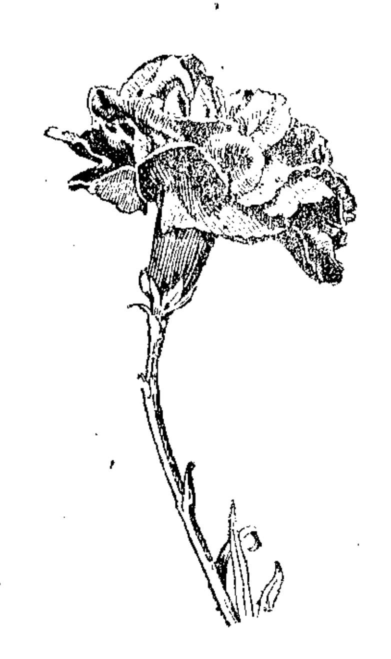
ثم وضع القلم بهدوء وأقفل كراساته وكُتبه بصمت كأنه لم يفعل شيئاً . وقال لنفسه مستسلماً بكآبة :

— ان افكارى اليوم مضطربة من تأثير الحلم الملعون

وفتح الخزانة وجعل يبحث فيها عن شىء كان يفتكر فيه ويريد الحصول عليه . فلما عثر عليه تنفس الصعداء وقال :

— هذه المسبحة متروكة من زمن طويل هنا . انها مفككة وغير صالحة للاستعمال . أليس من المستحسن اصلاحها عند الشيخ عبد الوهاب المكى ؟

وقام وقد صحّت نيته على الخروج



— ٥ —

وعاد الشيخ المكي الى رجب فقدّم اليه المسبحة منظومة الحبات براقة اللون فاخذها رجب ودفع للشيخ ثمن اصلاحها .
وتكلم الشيخ عبد الحي وقد اعتدل في جلسته متأهبا للقيام ، وقال موجها كلامه لرجب :
— هيا اذن نذهب الى الرجل . لعلك تجد على يديه الخير والبركة .
ولكني أرى الوقت غير مناسب للزيارة . لقد أظلمت الدنيا .
— هذا أفضل . ان حلجيان يمكث في محله الى ما بعد صلاة العشاء بوقت طويل . أعلم انه يفضّل العمل ليلا على العمل نهاراً .
فتلكأ رجب في الاجابة وقد شعر بأنه قادم على عمل رهيب . ولكن الشيخ عبد الحي جعل يلح عليه ويغريه بطرق عديدة . ثم أمسك بيده وقام وقد اعتزم أن يأخذه معه . والتفت الى الشيخ المكي وقال له :
— نحن ذاهبون للحاج حلجيان . لعلّ الله يفتحها في وجهنا هه . السلام عليكم .

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وسار رجب مع الشيخ عبد الحى ، وهو لا يدرى اذاهب حقا الى حاجيان أو الى منزله . لقد كان فى شبه ذهول ، تدفعه الرغبة للاستسلام للشيخ ويمنعه الذعر من مجاراته . كان يسير متمهلا يفكر بحيلة ويداه تحركان حبات المسبحة باضطراب . ولما طال صمته التفت اليه الشيخ عبد الحى وسأله قائلا :

— لماذا أنت صامت وحالتك غير اعتيادية . ما الذى تفكر فيه ؟

فأفاق رجب من ذهوله وأجابه :

— أنا صامت وحالتى غير اعتيادية ! . . أبدا . كنتُ أفكر فى مسألة بسيطة لا شأن لها فيما نحن ذاهبون اليه .

وسارا مخترقين شارع الموسكى حتى اقتربا من محطة ترام الخليج فانتظرا هناك وكان الشيخ عبد الحى قد أطلق لسانه بالكلام فجعل يحدث زميله أحاديث مختلفة ويروى له بعض الفكاهات حتى سرى عن رجب بعض الشىء . وجاء الترام فركباه . وما كادا يستقر بهما المقام حتى صعد على سلم المركبة غلام رث الهيئة ، تقدم نحو رجب وصاح موجها نداءه اليه :

— نتيجة طوالع الملوك والسباغ والطوخى .

ثم دنا منه واسرّ فى أذنه قائلا :

قصيدة الطوالع التى فيها أخبار أنور باشا ومصطفى كمال . . !

فاشترى رجب تقويما من الغلام . وما كاد يفتحه حتى خطفه منه الشيخ عبد الحى وقال له على الفور :

ـ سأقرأ لك القصيدة وأفسرها . انى على علم تام بكل ألغازها .

وبدأ يقرأ بصوت عال سمعه كل من في المركبة . وجعل يفسّر الالغاز بسرعة يخالها السامع مهارة فائقة . فاجتمع نفر من الجالسين حوله واخذوا يصغون لكلامه او يطرحون عليه الاسئلة . وهكذا مرّ الوقت . ووقف الترام اخيراً فى محطة « السيدة » فنزلا . وسار الشيخ عبد الحى بخطوات واسعة وخلفه رجب يجتهد فى اللحاق به . ودخلا حارة ضيقة خالية من المارة لا يضيئها الا مصباح واحد من مصابيح الطرق ، له نور ضئيل ينبعث من فتيلة محرقة . فعاودت رجب بعض مخاوفه ولحق بالشيخ عبد الحى وهو يلهث من التعب . وقال له :

— لماذا تسير بهذه السرعة . تمهّل قليلا . أشعر بانقطاع نفسى .

— لأننا نريد أن نجد الرجل قبل رحيله .

— ولكنك قلتَ لى أنه يمكث الى ما بعد صلاة العشاء بوقت طويل .

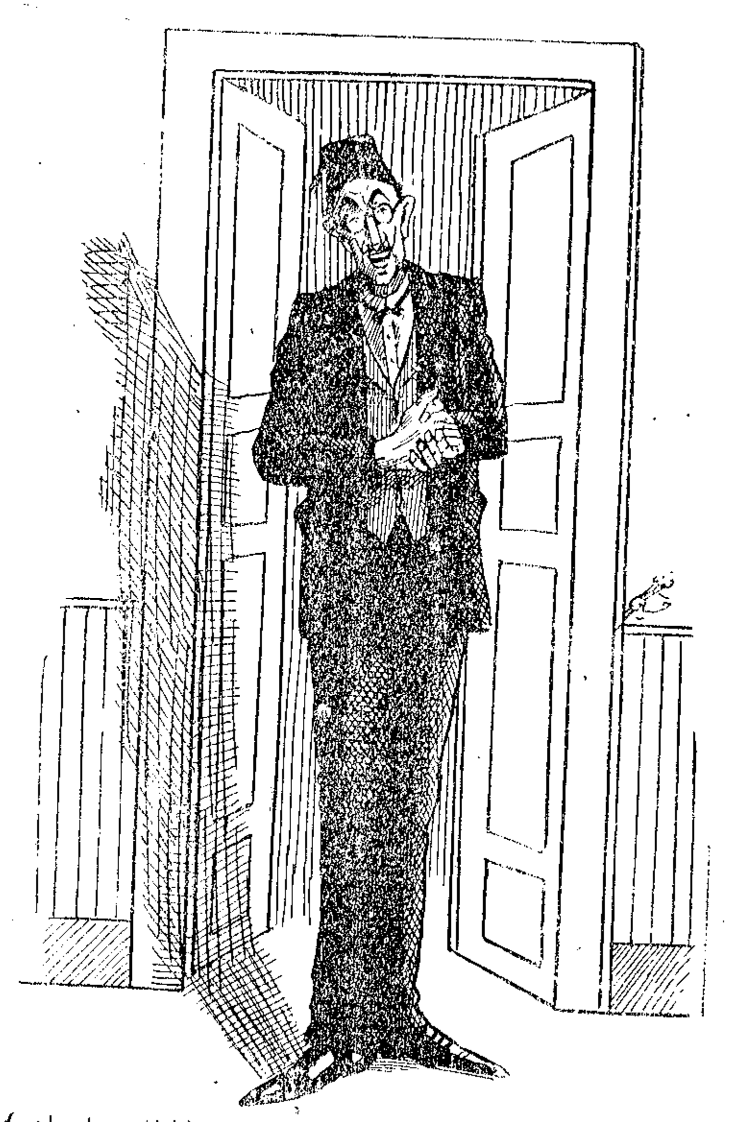
— ليس فى كل الاحيان .

واقتربا فى تلك اللحظة من المنزل الذى يشغل طابقه الأعلى الحاج حلجيان فتوقف الشيخ عبد الحى عن المسير ورفع نظره الى فوق فرأى النور ينبعث من الطابق فقال لرجب :

— الحمد لله لم ينزل بعد .

ودخلا المنزل وكان بابه غير مقفل فوجد رجب نفسه فى ممر ضيق مظلم تنبعث منه رائحة عفنة . وأشعل الشيخ عبد الحى عوداً من الثقاب أنار لهما الطريق قليلا . واتجها نحو السلم وصعدا بتمهل وحذر . وكان الشيخ عبد الحى يشعل أعواد الثقاب الواحد بعد الآخر . وأخيراً وقفا أمام الباب . وتقدم الشيخ فدقه . وبعد لحظة انفتح وظهر على عتبته شخص يرتدى الملابس الافرنجية ويستعمل الطربوش اللين المهدم الجوانب . وكان هذا الشخص حلجيان نفسه . فلما رآهما وعرف منهما الشيخ عبد الحى رحب بهما وأدخلهما غرفة الانتظار ريثما يتم « عمله فى غرفة المشورة » كما يسميها . ولما استقر بهما المقام بادر رجب رفيقه قائلا :

— أهذا هو حلجيان افندى ؟ !



وبعد لحظة انفتح الباب وظهر على عتبته . . (الحاج حلجيان)

وكأنه لم ينتظر أن يراه بهذا الشكل . فقد تخيله شخصا بدين الجسم برأس كبير ووجه عريض ولحية صفراء مدلاة على صدره فاذا به نحيف الجسم بوجه طويل وشارب رفيع ممتد على صدغيه . شخص اعتيادى ليس له هيبة ولا اعتبار .

وبعد برهة قصيرة ظهر حلجيان يدعوهما الى أن يتفضلا بالدخول فى حجرة « المشورة » . فقاما وسار الشيخ عبد الحى فى المقدمة ورجب يتبعه ، ونفسه تحدثه بالخيبة والفشل . ولما دخل حجرة « المشورة » وجدها أكثر تنسيقاً ونظافة من الأولى . بها مكتب من الطراز القديم عليه اكوام من الجرائد والأوراق مكدسة باهمال . ومعلق على احدى حيطانها صورة كبيرة تمثل حلجيان يحضّر الأرواح ، راقت لرجب وعدّها أحسن شىء صادفه للآن . ثم مائدة بثلاثة أرجل تتوسط الغرفة ، هى بلا ريب مائدة التحضير ـ بيت القصيد فى هذا المكان .

وتكلّم حلجيان أخيراً وقال :

— شرفتم وآنستم يا افندى . لقد نورتم البيت . أهلا وسهلا ومرحبا .

وصفّق بيديه مناديا الغلام ، قائلا :

— يا عبد الفتاح ، يا عبد الفتاح . القهوة يا ولد سريعاً .

وفيما كان عبد الفتاح يجهز القهوة أخذ الشيخ عبد الحى يشرح لحلجيان المسألة فطرق الموضوع رأسا . وأخبره بأن رجب افندى يريد أن يتعلم « تحضير الارواح » ويرغب الليلة أن يكلم روح أبيه . ففزع رجب وبادر الاستاذ بقوله :

— ليس من الضرورى يا استاذ أن نكلم الروح الليلة . فلنترك ذلك لفرصة أخرى . أظن أن الوقتَ غير مناسب .

فأجابه حلجيان :

— أبداً يا افندى أبداً ، الوقت مناسب للغاية . سنكلم الروح بكل سهولة الليلة . وايّد الشيخ عبد الحى كلام الاستاذ قائلا :

— الوقت فى غاية المناسبة . والظروف تساعد الاستاذ .

فرضخ رجب مستسلماً . وقبل البدء فى العمل فاوض الاستاذُ تلميذَه فى قيمة الدروس وأوقاتها . وبدأ المفاوضة بمحاضرة طويلة عن علمه وقوته الروحية الخارقة للعادة ، راوياً لهما نبذاً من تاريخ حياته الحافل بحل المعضلات والكشف عن الاسرار ؛ شارحا لهما بعض الشرح طريقته السهلة فى التعليم ، طريقة تسيغها عقول الاطفال قبل عقول الرجال . ثم ختم المفاوضة باملاء شروطه . فقبلت من غير مساومة . وفاز الاستاذ الشيخ عبد الحى بأمنيته فى التعليم مجانا .

-٦-

كان رجب والشيخ عبد الحى اثناء هذه المحاضرة جالسين أمام الأستاذ ، الأول جلسة الخشوع والخوف يستمع بشغف للحديث ، والثاني جلسة السرور والانفعال يبتسم بجرأة ويحملق بعينيه لكل اشارة تبدو من الاستاذ ، مرهفا أذنيه لكل كلمة تخرج من فيه.

وما كاد ينتهى الاستاذ من محاضرته حتى شعر رجب انه أمام شخص غير عادى ، شخص عظيم فى ذاته ، كبير بأعماله الخفية الروحانية . فأخذ ينظر اليه باجلال ، مملوء القلب والنفس بروعة سحرية .

وقام حلجيان الى المنضدة وأخبرهما بأنه سوف يحضر لهما روح والد رجب افندى . ثم يبدأ الدراسة المنتظمة معهما بعد أربعة أيام . ودعاهما الى أن يأخذا محلهما بجوار المنضدة .

* * *



﴿جلس الثلاثة حول المنضدة﴾

ووضعوا أطراف أصابعهم على حافتها » وكان عليها ورقة بيضاء كبيرة وقلم من الرصاص يكتب به الاستاذ الاسئلة الموجهة الى الأرواح والأجوبة التى يتلقاها منهـا . ولفظ حلجيان بعض أسماء مجهولة بسرعة غريبة ثم حملق بعينيه فى شيء مبهم وبدأ يطلب روح والد رجب افندى باسمها ويعلنها برغبة ابنه فى حضورها . وبعد عدة ثوان اهتزت المنضدة فاهتز قلب رجب هلعاً على أثرها . وامسك حلجيان القلم ووضع يده على الورقة مخبراً رجبا بأن الروح قد حضرت وهى قابضة الآن على يده . فامعن رجب النظر فى يد حلجيان ، نظراً تجلى فيـه الذعر وحب الاستطلاع . وكان يدقق النظر فى يد الاستاذ ويدور بعينيـه هنا وهناك حولها متتبعاً رسماً وهمياً لشخص أبيه كأنه يريد أن يكتشف حجم روحه وشكلها . ولكنه لم ير غير يد حلجيان وهي تهتز هزات عصبية فوق الورقة البيضاء ترسم بعض الدوائر والخطوط والتعاريج بخلط واضطراب كأنها يد طفل صغير تعبث بالرسم أو الكتابة . ومن بين هذه الخطوط والتعاريج ظهرت له أخيراً كلمة استطاع أن يقرأها بشيء من الصعوبة فاذا بهـا كلمة « ابراهيم » .

فصاح فَرِحا بانفعال :

— هو . هو أبى الشيخ ابراهيم

فصوب حلجيان نظره اليه يأمره بأن يضبط شعوره ، و طلب منه بصوت خافت أن يدع أباه يتم كتابة اسمه ، ثم مال عليه و سأله قائلا :

— ماذا تريد أن تسأله ؟ تكلم

فاجاب رجب بذهول كأنه لم يكن يتوقع هذا السؤال :

— ماذا اريد أن أسأله . أنا !

فاسر الشيخ عبد الحى فى اذنه قائلا :

— تكلم ، تكلم . اسأله عن أى شىء .

فتحير رجب . و جعل يبحث فى ذهنه المضطرب عن سؤال يسأله للروح فلم يفز ببغيته . فالتفت الى الشيخ عبد الحى و قال له :

— ... ليس عندى ما أقوله له .

و تكلم حلجيان بصوت مرتفع و طلب من رجب أن يكلم روح والده و الا ضاعت الفرصة منه هذه الليلة ، و ربما ضاعت الى الابد . فاضطرب رجب و تكلم متلعثما و هو يوجه كلامه لبد حلجيان ، يخاطب فيها روح والده :

— هل انت أبي الشيخ ابراهيم ؟ وكيف حالك . . . هل أنت مسرور ...

فتحركت يد حلجيان وأخذت تكتب ببطء كبير وبخط متعرج اجابة الروح فكانت كما يأتي :

— أنا روح أبيك ابراهيم يابني الحمد لله فاني مسرور ...

فتشجع رجب من هذه الاجابة وسر بها . وتحرك بانفعال على مقعده لا يدري ما يفعل . ودنا من حلجيان يريد أن يكلمه ولكنه لشدة اضطرابه لم يلفظ كلمة ما . وتحول عنه الى جهة الشيخ عبد الحي وفتح فمه يريد أن يحادثه ولكنه لم يتكلم أيضاً . فعاد الى مكانه الاول وهو ينظر الى حلجيان بسذاجة وقد افتر فمه عن ابتسامة ضئيلة . وأخيراً تكلم ببطء ، بصوت مرتجف النبرات موجهاً كلامه الروح . قائلا :

— وكيف حال أمي . أمي فَرْح . أهي مسرورة أيضاً .

فتحركت اليد من جديد حركاتها البطيئة المتعرجة . فكان جوابها هكذا :

— لقد قضت أمك أيامها المكتوبة عليها في النار . ولكنها الآن في الجنة معي .

فحملق رجب افندى في اليد ثم فى وجه حلجيان وقد تقلصت شفتاه وتغضن وجهه وتكلم هاذياً كأنه يحادث نفسه :

— امى ذهبت الى النار ! .. ولماذا ! .. وهل أتت شيئاً يستوجب هذا العقاب وهى الام الصالحة التقية ! ...

فاجابت الروح على ذلك كأن الكلام موجه اليها :

— هذه أسرار لا يعلمها الاحياء يا بنى . فلا تسأل عنها .

ثم امتدت يد حلجيان بعد كلمة « شيئاً » بخط طويل أخذ ينحنى ويدور على نفسه بشكل دوائر داخل بعضها فى بعض وانتهت أخيراً بنقطة كبيرة هى آخر دائرة استطاع القلم أن يرسمها ؛ دائرة مطموسة بحجم رأس الدبوس . وتكلم حلجيان افندى مفسراً ذلك الرسم بقوله ، ان الروح ذهبت . فتعجب الشيخ عبد الحى وسأل ما سبب هذه العجلة فى ذهاب الروح فاخبره حلجيان انها لا بد مشغولة . ثم التفت الى رجب وكان يتنفس نفساً طويلا وسأله عما اذا كان يريد أن يكلم ارواحاً اخرى فهز رأسه هزة الرفض . وقام حلجيان الى مكتبه فقام الاثنان على أثره يتبعانه . فلما جلس التفت الى رجب وقال له :

— اتريد أن تعرف أين ذهبت الآن روح أبيك ؟

فاجاب الشيخ عبد الحى كأن السؤال موجه اليه :

— طبعا نريد أن نعرف . هذا شيء مهم .

واقتصر رجب على الاجابة بان حنى رأسه علامة الرضى ، مذهولا ينظر نظرات تائهة . وتكلم حلجيان مخبراً اياهم بشكل محاضرة جديدة ان لكل روح خُلقت أوسوف تخلق فى المستقبل القريب والبعيد مكاناً خاصاً لها في « العالم الآخر » . هناك يوجد برج شيدته الملائكة قبل خلق آدم « أبي البشر » وجعلت فيه عيوناً لا يستطيع ابن آدم أن يحصيها ؛ كل عين مخصصة لكل روح تخلق على وجه الارض

فقاطع الشيخ عبد الحى كلام حلجيان قائلا :

— وهل روحى مثلا لها عين فى هذا البرج ؟

— روحك وروحى وروح رجب افندى وأرواح كل الاشخاص الاموات والاحياء والذين لم يولدوا بعد

وكان رجب قد بدأ يعود الى حالته الطبيعية فسأل جاره مستفهماً :

— ماذا يزيد الاستاذ من روحى ؟

فعرف حلجيان أن رجبا كان ذاهلا فأعاد كلامه من جديد .

وبدأ يفسر له باسهاب خبر برج الارواح . وأفهمه ان روح أبيه بعد أن تركتهم ذهبت مسرعة لتتلقى الاوامر. ووصف له حلجيان برج الارواح ببرج على شكل أبراج الحمام ولكنه طويل طولا لاتدركه عقول الاحياء

وانتهت الزيارة فقام رجب بعد أن نقد الاستاذ أجره مضاعفا . وخرجا من باب الطابق حيث شيعهما حلجيان اليه . وبدأ الشيخ عبد الحى يشعل اعواد الثقاب كما فعل عند مجيئهما وسمعا وهما نازلان الدرج بحذر ، صوت حلجيان ينادي خادمه عبد الفتاح ليقفل النوافذ ويطفىء المصباح لانه على أهبة الخروج

وانتهت أعواد الثقاب التى كان يشعلها الشيخ عبد الحى فأخذا يلتمسان طريقهما فى ظلام حالك . كان رجب يمشى بحذر وخوف خلف رفيقه ممسكا كتفه بيده . فلما خرجا الى الحارة ووجدا نور المصباح الضئيل يضىء المكان بلهبه الازرق اطمأن قلب رجب قليلا وأنزل يده عن كتف الشيخ وسار محاذياً له . وقطعا طريق الحارة وهما صامتان . فلما خرجا منها واقتربا من الشارع حيث الحركة والنور تنهد رجب ولفظ « الشهادة » كأن حملا ثقيلا كان على عاتقه . ثم التفت الى رفيقه وقال له :

— ما أحسن النور والهواء . أين كنا يا أخي طول هذه المدة

وكان الشيخ يريد الاجابة لولا أن جاء قطار الكهرباء فاسرع اليه وهو يقود رجبا خلفه . ودخلا المركبة ولم يكن فيها أحد سوى شخص لم يتبيناه : هل هو رجل أو امرأة . فقد كان جالساً فى الركن الامامي البعيد بينما اتخذ الاثنان مكانهما فى الركن الأخير . وكان هذا الشخص ملتفاً برداء اسود يختلط على الناظر معرفته فهو اما ملاءة للنساء أو زعبوط من زعابيط الفلاحين أو جبة من جبب المشايخ . لايظهر من هذا الرداء الا عينان حادتان تدوران فى أرجاء المركبة فى حيرة كأنهما تبحثان عن شيء . فلما استقر برجب ورفيقه المقام تحولت نظرات هذا الشخص المجهول اليهما وجاء « الكمسارى » فاعطاهما التذاكر . وأخذ منهما النقود . واختفى بعد ذلك فلم يره أحد كأنه اغتنم فرصة خلو مركبته من الناس فذهب الى المركبة الأخرى يشارك رفيقه الحديث

وظهر الكسل والخمول على سيماء الشيخ عبد الحى فبدأ يتثاءب ويتمطى ثم أسند رأسه على زاوية المركبة وأقفل عينيه واستعد للنوم . ونال رجباً من كسل جاوه بعض الشيء فتثاءب

وتمطى واستعد هو الآخر للنوم . أقفل عينيه وتاه فى بيداء الخيال وهو يسمع غطيط جاره المتواصل . حاول النوم فلم يستطع اذ كان عقله مستيقظاً يفكر فى مختلف الامور : فى حلجيان وما رآه عنده ، فى والده وما سمعه من حديثه ، فى أمه التى دخلت جهنم ، فى عمه وأقاربه . . . وأخيراً فى برج الارواح ، حيث استقر تفكيره فيه فلم يبرحه ، فتخيله كبرج الحمام الذى كان فى دار والده فى الريف ، حيث أمضى بعض سنى طفولته . فقد كانت لهم دار صغيرة فى قرية بالقرب من قليوب أقاموا فيها ردحاً من الزمن ثم تركوها عند ما أفلس الاب فى مزرعته ، قافلين الى مصر يعيشون مع الشيخ أبى المحاسن عم رجب افندى

كان برج الحمام فى دار والده الريفية برجاً مبنياً بالطين . يتوسط فناء الدار بجوار حظيرة المواشى . تخيل رجب برجَ الارواح على شاكلته تطل من عيونه أرواح الموتى على شكل حمائم بيضاء شفافة تلمع لمعان مصباح الكهرباء . ولكنه تخيل بين هذه الحمائم البيضاء حمائم أخرى سوداء ، هى أرواح المذنبين من أهل النار ، تصيح صياحاً مزعجاً ، وعيونها تقدح بشرر مخيف . فرهب رجب منظرها وفتح عينيه فقابلتا عينى الشخص المجهول ، وكان

مصوباً اليه نظره الحاد . ففزع ومال على رفيقه يوقظه . ولما استيقظ الشيخ عبد الحى بادره رجب بقوله :

— ألا ترى هذا الشخص الغريب الذى ينظر الىّ هذه النظرات الجهنمية . . . أخشى أن يكون منّ أهل الجان . . انظر

فالتفت الشيخ عبد الحى الى الشخص فوجده قد حول نظره الى محل آخر فأجاب رفيقه :

— أنت كثير الخوف يارجب افندى . أظن هذا الشخص الذى ترهبه وتحسبه من أهل الجان امرأة مسكينة لا شأن لها معنا

وأسند الشيخ من جديد رأسه الى زاوية المركبة وأطبق جفنيه ونام . وتبعه رجب فاسند رأسه الى حائط المركبة الخلفى وأطبق جفنيه ولكنه لم ينم . كان يفكر فى الشخص المجهول الذى كان يحدجه ببصره منذ هنيهة . ثم جعل ينتقل بتفكيره من هذا الشخص الى ابراج الحمام الريفية ثم الى برج الارواح من جديد ثم الى الحمائم السوداء والحمائم البيضاء ثم يعود الى الشخص المجهول وهكذا . وتخيل كأن الحمام يطير داخل مركبة الترام ويرفرف باجنحته متنقلا من مكان الى آخر يلتقط الحب من المقاعد الخالية . وكان حمامة سوداء نارية العيون قد حطت على رأس الشخص

المجهول وسمع فى هذا الوقت صوت رفرفة آتية من ناحية هـذا الشخص ففزع وفتح جفنيه فتحة صغيرة ليرى ماذا يحدث فاذا بالشخص قد قام من مقعده واتجه نحوهما سائرا على سلم المركبة ، فازداد فزع رجب وأمسك بيد صديقه يهزها . وتبين الشخص فاذا به رجل ذو لحية غبراء ، له وجه أسمر مخطط بالتجاعيد ، يضع رداء كزعبوط الفلاحين على رأسه . اقترب الرجل منه ففتح رجب عينيه دفعة واحدة وصاح بفزع قائلا :

— من أنت ، من أنت . وماذا تريد منى ؟

وما زال يهز بيده رفيقه الذى كان تحت تأثير النوم العميق.

وتكلم الرجل بصوت غليظ . وكان فمه يتخذ شكلا قبيحاً عند الكلام ، وحاجباه يرتفعان وينخفضان كأنهما يشاركان الالفاظ فى الايضاح عن معانيها . ورأسه يهتز هزات موافقة لحديثه . وكانت يداه العظيمتان ، احدهما قابضة على مسند المركبة والاخرى تُشكّل أصابعها تشكيلا غريباً كاعمال المشعوذين . وصاح في رجب قائلا :

— صلى على سيدك وحبيبك النبي عليه الصلاة والسلام

فأجاب رجب مضطرباً :

— عليه . . . الصلاة . . . والسلام . . . ولكن من أنت؟



﴿وصاح الرجل قائلا : صلى على سيدك وحبيبك النبى ...﴾

وتثاءب في هذه اللحظة الشيخ عبد الحى ثم تمطى ودعك عينيه

وفتحهما فوجد الرجل الغريب أمامه مصوباً اليه نظره موجهاً اليه كلامه . وهو يحرك فمه وحاجبيه ويديه حركات المشعوذين وأخذ يقول :

وانت أيضاً يا شيخ . . . صلى على سيدك وحبيبك النبي عليه الصلاة والسلام

وكان يتكلم بلهجة الآمر . فأسرع الشيخ بالإجابة وهو لا يدرى ما شأن هـذا الرجل معهما . والتفت الرجل الى رجب وعاد الى الـكلام ولـكن بسرعة غريبة كأنه حافظ ما يقوله عن ظهر قلب :

— الله لا يفضح لك عرضاً ولا يقفل فى وجهك باباً . الله ينيلك ما تفكر فيه ، ان سراً وان جهراً بحق السيدة زينب « أم العواجز » الله يسترها معك فى الدنيا وفى الآخرة . الله لا يريك مكروهاً ، لا فى نفسك ، ولا فى أهلك ، ولا فى أولادك . . . . أنا رجل فقير مسكين لى من الأطفـال الأيتام تسعة لا يجدون ما يسدون به رمقهم . . وسكنى فى . . « أبى زعبل » ولا أملك من ثمن التذكرة الا قرشاً من « التعريفة » وأنت من الناس المستورين المجبولين على فعل الخير . كريم بفطرتك . فبحق النبي والأولياء

أن تكرمني باعطائي ثمن التذكرة « لأبي زعبل » وثمن تسعة من الارغفة لاولادى اليتامى . . .

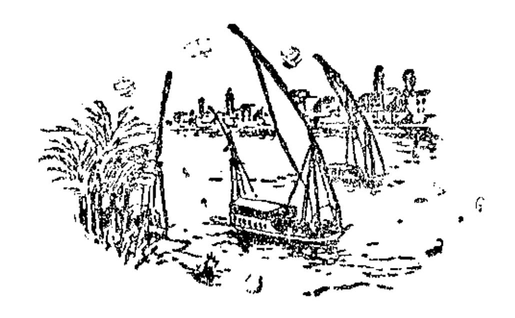
فنظر اليه رجب بدهشة ورعب . ومد يده بقطعة من ذات الخمسة القروش وأعطاها له وهو لايدرى كم أعطى . ووقف الترام فى هذه الآونة على المحطة المرغوبة فنزلا . وكان الشحاذ المشعوذ قد سبقهما في النزول وهو يردد الدعاء لهم بسرعة غريبة وبلهجة الآمر دائماً ولما تركا المحطة ووجهتهما سيدنا الحسين التفت رجب الى رفيقه وقال :

— هذا رجل يتسول أم يتشاجر ؟ لا انكر عليك أنى كنت خائفاً منه : من يدرى لعله من « بسم الله الرحمن الرحيم »

ثم انتقل من هذا الحديث الى حديث آخر فقال بغتة للشيخ عبد الحى :

— أنت ضيفى الليلة يا استاذ . مستحيل أن اتركك تنام فى غير بيتى . . . وبعد ان نتناول طعام العشاء نقرأ ما تيسر من الأحاديث الشريفة ونصلى عدة ركعات جماعة على روح الاموات أليس هذا مستحباً ؟

وقَبل الشيخ الضيافة فذهب معه الى منزله وتناول الاثنان معاً طعام العشاء وأمضيا الوقت يصليان ويقرآن البخارى ويتحدثان عما شاهداه وسمعاه عند حلجيان



— ٧ —

ومضت الايام وجاء ميعاد الزيارة الثانية للاستاذ حلجيان فهبط الشيخ عبد الحى دار رجب في ساعة مبكرة . وخرجا معاً وركبا الترام . وقطعا الوقت فى الكلام عن حلجيان وعن دروسه وعن روح الشيخ ابراهيم وعما ستفضى اليه اليوم من الاخبار . وأخيراً وصلا الى المكان . وقرعا الباب فاستقبلهما الغلام عبد الفتاح وأدخلهما حجرة الانتظار . وكانت على حالها لم يتغير فيها شيء قط فكأنهما تركاها منذ لحظة وعادا اليها ثانياً . وكان رجب صامتاً ينظر الى باب حجرة « المشورة » يُعدّ نفسه لمقابلة الاستاذ . وبعد برهة وجيزة فُتح الباب وظهر حلجيان . وكانت مقابلته لهما بالغة حد الادب والاحترام مع محافظته على هيبته وجلاله فى السير والكلام

واقترب الاستاذ من رجب ونظر اليه بابتسام ثم ضرب بيده على كتفه ملاطفاً ، وقال :

— انك مثقل بالأفكار يا بنى . يجب أن تريح نفسك . اخرج للفسحة واستنشق الهواء . وتردد ولو قليلا على محلات اللهو المباح . هذا ضرورى لك

فأجابه رجب وهو مطأطىء الرأس :

— انى لا افكر فى شىء يا استاذ . . . وأنا على أتم حال

— روح أبيك. روح أمك . برج الارواح . . كل هذه الاشياء وما هو على شاكلتها تملأ رأسك . . انك فريستها . هذا ما أقرأه فى عينيك . . .

فرفع رجب بصره فقابلت عيناه عينى حلجيان ، وكانتا تحملقان خلف النظارات،ترسلان شعاعاً حاداً قوياً . فارتعد وأغمض عينيه

وأخيراً أدخلهما حلجيان حجرة « المشورة » وقادهما الى مائدة تحضير الارواح وهو يقول لهما :

— لا نريد أن نضيّع الوقت فى الكلام . بل نريد أن نعمل . . . هيا ضعا أيديكما .

فوضعا أيديهما . واستعد حلجيان للعمل . ولكن قبل أن يبتدىء أخذ يلقى محاضرته الطويلة ، ذات الكلام الاجوف الرنان ، التى يفتتح بها عادة دروسه . وختمها بعد أن جعل من تلميذيه آلة خنوع له

ثم تكلم ثانياً وأخبر رجباً بأنه سيحضّر له روح أبيه وسيعلمه كيف يحادثها . وتمتم بجمل والفاظ مبهمة ، إهتزت المائدة على أثرها

وحضرت الروح غير مرئية . فالتفت حلجيان الى رجب وطلب أن يمسك القلم ويضعه على الورقة بدون ضغط ثم يترك ليده حرية السير فى الكتابة بدون أن يحركها بنفسه ففعل رجب ما أمره به استاذه ولكن يده لم تتحرك . فقام حلجيان من مقعده ونظر فى وجهه وقال له بصوت الآمر :

— لا تتعجل يدك ستتحرك بلا ريب . انظر ألا تشعر أن فيها قوة غريبة . انك تشعر بهذه القوة . مستحيل انك لا تشعر بها . . إنى أرى يدك تهتز . روح أبيك حاضرة وهى التى تقبض على يدك . . ان يدك تهتز . . . ألا تشعر بذلك ؟ انها ترتعش . ستتحرك . . لا تخف يا بنى . . . انتهى كل شىء . لقد تحركت يدك . تحركتْ . تحركتْ . . انظر اليها كيف تسير ببطء . اتركها على حريتها تكتب ما تريد . روح أبيك هى التى تسيرها

وكان رجب يصغى الى صوت حلجيان وهو مشدوه مضطرب . وتحركت يده المرتعشة حركات عصبية فسارت الهوينا على القرطاس ترسم خطاً متعرجاً . وبينما كانت اليد تسير بلا ضابط ولا غاية كان حلجيان يصيح فى رجب قائلا :

— يدك بدتْ تكتب . . . هاهى الالف . . الالف أول

حرف من اسم أبيك ابراهيم . . لقد كتبتْ يدك الالف . .
كتبتها واضحة .. ألا فانظر ... والآن ستكتب الباء ... الباء ...
الباء . . .



وكانت يد رجب تلف صاعدة نازلة

وكانت يد رجب تلف صاعدة نازلة تحاول رسم الباء . وصاح حلجيان صيحة منكرة جعلت يد رجب المرتعشة الحائرة ترسم الباء واضحة تامة . وهكذا كتبت الروح اسمها ؛ فابتسم حلجيان ابتسامة الظافر وسعل لينظف حنجرته والتفت الى الشيخ عبد الحى الذى كان يراقب باهتمام هذه العملية الشاقة وقال له :

— ان رجب أفندى سائر بنجاح فى التعليم لقد استطاع أن يكتب اسم أبيه فى الجلسة الاولى . هذا شيء يسر للغاية

ثم التفت الى رجب ، الذى كان ينظر نظرات تائهة الى اسم أبيه والى يده والى الخطوط والدوائر المتعرجة التى رسمها ، وقال له :

— أتم الكتابة لئلا تمل الروح الانتظار .

وبدأ الجهاد من جديد . فكان حلجيان يصرخ آمراً ، ويد رجب تتحرك صاغرة ترسم الخطوط المتعرجة التى تتألف منها الكلمات ، واستمر العمل ساعة أتم فيها رجب حديثاً صغيراً مع روح أبيه . وكان يشعر منذ أن بدأ الكتابة بدوار أخذ يتسلط عليه . فلم يعره التفاته فى بادىء الأمر . ولكنه بغتة أحس بتصلب يده ثم رأى القرطاس كأنه يدور أمام عينيه . وشعر كأن هناك

مطارقة حادة تضرب على أم رأسه . ونظر الى ماحوله فلم ير الا أشباحاً تتلاشى . فألقى القلم . وجعل يتنفس بصعوبة . وقال بجهد وقد اصفر وجهه وغمره العرق البارد :

— كفى .. لا أستطيع .. أريد هواء .. ماء .. أدركونى

فذهب حلجيان اليه ورمى طربوشه جانباً . ثم حلّ حزام قفطانه وعُرى صداره . وجعل يروّح على وجهه برزمة من الاوراق وجدها تحت يده . ثم صرخ على غلامه قائلا :

— ياعبد الفتاح ، ياعبد الفتاح . قلة المياه ياولد ، سريعاً .. قلة المياه يا ابن الكلب سريعاً .

وهرع عبد الفتاح آتياً بقلة المياه . فأخذها حلجيان وصب معظم مائها على رأس رجب ووجهه . أما الشيخ عبدالحى فلشدة حيرته واضطرابه ظلّ جامداً ينظر بحيرة: تارة الى رجب وطوراً الى حلجيان .

وأفاق رجب أخيراً من نوبته ففتح عينيه وأخذ يمسح وجهه بيديه . ثم فتح فمه وجعل يلحس بلسانه قطرات الماء التى على شفتيه . وأدرك حلجيان رغبته فناوله القلة ، فكرع ما بقى فيها دفعة واحدة . ثم ابتسم وقال لمن حوله :

— لاتخافا .. انها نوبة صغيرة مسببة من التعب .

وعادت الى حلجيان قوته المعنوية فاكسب وجهه مظاهر الهيبة والأستاذية . وتكلم متمهلا بصوت أجش قائلا :

— هذا شيء بسيط جداً .. بسيط للغاية . شيء يتكرر حصوله أمامي كثيراً ... ان الأشخاص اللمفاويي المزاج لا يتحمل نخاعهم الشوكى الصدمات الروحانية من أول وهله . لأن فى نخاعهم مادة سنجابية اللون لاتتحد مع مادة الأرواح الهيوليـة البلورية الا اذا حصل تماس قوى . .

وكان على وشك الاندفاع فى القاء محاضرة يفسر بها هذه النظرية الجديدة لولا أنه لاحظ الأعياء ظاهراً على وجه رجب فلاطفه على كتفه وقال :

— لا تخش بأساً . ان نخاعك الشوكى بحالة سليمة بالرغم من ضعفه . ولكنه سيقوى على مر الزمن .

فابتسم رجب لملاطفة أستاذه . وحاول أن يقوم نخذله ركبتاه . فطلب منه حلجيان أن يستريح ريثما يعود الى حالته الطبيعية . وأمر غلامه بعمل القهوة . ثم قصد الى مكتبه وشرع يحكى لتلميذيه حادثة وهمية تماثل حادثة اليوم . وأفاض فى سردها

يمتق أوصافها ويهوّل حوادثها ويحشوها بالفكاهات حتى سرّى عن رجب . وكان للقهوة تأثير طيب على أعصابه فنشط جسمه وزال ألم رأسه . ولمّا وجد نفسه قادراً على الخروج ابتسم لاستاذه ابتسامة الرضى وحدد معه ميعاد الجلسة القادمة بعد أسبوع . ثم خرج مصحوباً بالشيخ عبد الحى .

***

ومضى الأسبوع بخير فشعر رجب بزوال آلامه تماما . وتجددت قوته وعاد اليه نشاطه . وجاءه الشيخ عبد الحى فى اليوم المعين . وخرج معه الى دار حلجيان كما هو متفق عليه . فحضر لهما الاستاذ الارواح . واستطاع رجب أن يكلم روح قريب له بدون عناء كبير

واستمر تردد رجب وزميله على حلجيان ستة أشهر ، اتما فى نهايتها تعاليمهما الروحية . وقد استنفدت هذه الدروس من مال رجب ما كان أعدّه لوقت الحاجة . ولكنه لم يأسف على ضياعه نظير ما اكتسبه من علم وخبرة على يد استاذه الروحاني الكبير .



— ٨ —

تواعد رجب مع الشيخ عبد الحى على اللقاء فى جامع سيدنا الحسين . وكانا قد اعتزما ، بعد أداء الصلاة ، أن يذهبا الى المنزل ليحضرا الأرواح لأول مرة بمفردهما . فلما أتما صلاتهما اقترح رجب على رفيقه أن يتناولا طعامهما فى مطعم المعلم فتوحة ، الكائن فى نفس الجهة . فقابل الشيخُ الاقتراحَ بالرضاء التام ، وهو يزدرد لعابه جزافاً ، اذ لم يكن قد زار المطاعم العامة منذ أمد طويل

دخلا المطعم فهرع اليهما صاحبه وكان بجوار الباب خلف المطبخ يجهز العجة لبعض الزبائن ، وهلل بهما وهو يمسح يديه فى فوطة صدره القذرة استعداداً للسلام عليهما مصافحة عملا بأصول الكرم . وقال لهما وهو يبتسم :

— لقد شرفتما الدكان . أهلا وسهلا ومرحبا .

ثم صرخ من أعماق نفسه يأمر الغلام قائلا :

— جهز ياولد المائدة التى فى الركن وافرش عليها جرنالا جديداً

ثم مد يده مبتسما وقد انحنى انحناء الاحترام وسلم عليهما . وكان يقبل يده بصوت مسموع يرن فى جو المطعم . وبعد كلمات

الترحيب والتحية من الجانبين تكلم المعلم « فتوحة » وهو يصلح عمامته على رأسه ويعيد تشمير كميه المنحلين قائلا :

— لقد مضى وقت طويل لم تأكلا فيه سَلَطَتنا المشهورة أليس كذلك ؟ سأجهز لكما صحناً غاية فى الاتقان . ثم لدى بيض صابح ألا تريدان عجة بالبقدونس والتحابيش . شىء لذيذ من صنع يدى . ولقد أحضرنا ، على فكرة ، اليوم من الفرن الافرنجى صينية من الزلابية . ما رأيكما فيها ؟

ثم صاح بعد أن صفق تصفيقاً حاداً غير منتظر اجابة رجب أو زميله . قائلا :

— سريعاً ياولد جهّز اثنين عجة بالتحابيش واثنين سلطة بالشطة ، وقطعتين زلابية مشربة بالعسل

ثم توسط المطعم بعد مامسح بفوطة صدره مقعد رجب وزميله وصاح مناجياً نفسه بنغمة فيها مدّ وغنه ، قائلا :

« اللى على الله على الله »

* * *



المعلم فتوحة

والمعلم فتوحة هذا رجل يبلغ من العمر الخامسة والاربعين ،
عليه طابع البلدية فى كل شىء ، فى ملامحه ولهجته ولباسه . هو

« عايق » كما تسميه النسوة . وكان فتوّة فيما مضى ، له وقائع يعرفها الجميع وسوابق محفوظة فى سجلات أقسام البوليس. وهل لا يعرف الناس « فتوحة » الفتوة الذى كان يتقدم مواكب الافراح يحميها بعصاه الغليظـة ، من كانت تهابه الصبيـان والرجال وتعجب به النساء ويخشاه فى بعض الاوقات رجال الشرطة . ولـكنه اليوم تاب الى ربه بعد أن أذله الحبس خمس سنين متوالية . ولم يترك له الماضي إلا شقة فى رأسه ما زال أثرها ظاهراً فى أعلى جبهته وعصا غليظة كانت سلاحه الذى يقاتل به . لقد سئم المعلم فتوحة اليوم حياة « الفتوة » واتجه لحياة النساء فهو يتزوج اذا كان الربح لديه متوفرا ويطلق اذا ماقل الربح أو ملّ الزوجة . ولـكنه كثير التشبيب بالنساء يحفظ المواويل والادوار البلدية التي تعبر عن نفسيته وطالما رآه الزبون واقفاً أمام « وابور الغاز » يطبخ العجة أو أمام طاجن « السلطة » يجمع الاصناف ويقلبهـا وهو يغني بصوت يسمعه من في الشارع ، تارة صائحاً « ياليل » وطوراً مردداً أغنيته المحبوبة

— (ياميت ندامة على اللىّ حب ولا طالشى .) ... ...

* * *

وكانت أكلة شهية سرّ لها كل من رجب والشيخ عبد الحى. وتقدم رجب فدفع ثمن الأكل لنفسه ولزميله بعد احتجاج شديد من الشيخ عبد الحى الذى أوهم الحاضرين وصاحب المطعم أنه يريد دفع الحساب كله. وقد أدخل فعلا يده فى جيب جلبابه متظاهراً بجمع النقود كأنه يعدها قرشا قرشا ولكنه لم يخرجها بل ظل منتظراً رجبا حتى دفع الحساب بأكمله. وكيف يستطيع الشيخ عبد الحى دفع الحساب وهو لا يملك غير قرش واحد وبضعة ملاليم

وكان قد اتجه نحو احدى الصور المرسومة على حيطان المطعم وجعل يفحصها. وهي صورة تمثل ذهبية فى النيل يطل من أحد نوافذها شيخ معمم رسم له أحد الزبائن بالقلم الرّصاص شارباً طويلا يبلغ طرفه الايمن مقدّم الذهبية وطرفه الايسر مؤخرها. وبعد قليل صاح الشيخ عبد الحى بالمعلم فتوجه مستفهما:

— ما هذا يا معلم فتوحة. هل كانت شوارب أهل زمان طويلة بهذا القدر؟

فالتفت اليه المعلم وعلى وجهه أمارات الجد والاهتمام وأجابه قائلا:

— طبعاً.. ألم تسمع شيئاً عن فرعون مثلا

— وهل كان لفرعون شارب طويل ؟

— لقد كان فرعون يبلغ فى الطول طول المارد فكيف بشاربه ؟ . . .

ثم جعل يقص على رجب أفندى و الشيخ عبد الحى و بعض الزبائن الذين شاقهم حديثه فالتفوا حوله ، ما يعرفه عن فرعون الذى كان رأسه يناطح السماء نظراً لطول قامته

* * *

وخرج رجب والشيخ عبد الحى من المطعم بعد أن صافحهما المعلم مصافحة حارة . واتخذا طريقهما الى المنزل . وأخيراً وصلاه ، وكان عليهما طابع الخمول الشديد . فقصدا من فورهما حجرة رجب الخاصة وسرعان ما تمددا فيها حتى كانا يغطان فى نوم عميق

و بعد أن أخذا قسطهما من الراحة استيقظا . ثم توضيا وصليا . وشعرا بعد الوضوء والصلاة بانتعاشهما فطرحا الكسل جانباً وبدآ يفكران فى الأمر الهام ـ الذى اجتمعا من أجله اليوم ـ وهو تحضيرهما الأرواح لأول مرة بمفردهما . وكان رجب قد أوصى النجار بصنع منضدة صغيرة بثلاث أرجل جاءت وافية بالغرض . فأدناها من فراشه حيث كان جالساً وبجواره الشيخ عبد الحى

ورتب عليها الأوراق اللازمة تأهباً للعمل . وقبل البدء بالتحضير أخذا يتناقشان عمن يريدان اختياره من الأرواح ، وأخيراً رشح الشيخ عبد الحى الشيخ محمد عبده . ووقع اختيار رجب على هارون الرشيد . ولم تمض فترة صغيرة حتى كان رجب يحادث هارون الرشيد . فجلس جلسة المتأدب ، يكتب بخشوع كأنه فى حضرة الرشيد نفسه . وكادت المحادثة تنتهى بخير لولا تدخل الشيخ عبد الحى ، لأنه سره بعض لطائف جاءت فى كلام الرشيد فضحك على أثر قراءتها ضحكا عاليا ثم صاح بملء شدقيه موجهاً كلامه للروح الماثلة امامهما قائلا :

— جازاك الله يا شيخ . انك مهذار تحب التنكيت .

فتضايق رجب من كلام الشيخ عبد الحى وعده اهانة لروح ذلك الرجل العظيم فشعر بيده تهتز هزات عصبية ثم كتبت ما يأتى بخط كبير بعد أن رسمت عدة خطوط منحنية ودوائر متعرجة :

— أنت رجل وقح يا عبد الحى .

وقرأ الشيخ عبد الحى الجملة فتجهم وجهه بعد اشراقه . ونظر الى رجب مستفهماً بدون أن يتكلم . واعتراه شيء من

الخجل والحيرة . وشعر بحرج مركزه امام روح الرشيد . وخشى بأن يكون حقاً أساء الادب فأظهر الخشوع والندم . وتضاءل جسمه متداخلا بعضه فى بعض كتضاؤل المقرور من شدة البرد . وتكلم أخيراً بصوت ضعيف مرتجف يطلب الغفران عن ذنبه موجهاً كلامه للروح غير متجاسر أن يرفع بصره الى الجهة التى كان متصوراً وجودها فيها .

— وماذا فعلتُ يا مولاى حتى أنال غضبك هذا ؟

فأسرعتْ يد رجب فى الكتابة تجيب على هذا السؤال :

— عاملتنى معاملة الند للند ونسيت أنك تخاطب أمير المؤمنين وخليفة رسول العالمين .

فارتجف الشيخ عبد الحى واختلج صوته وهو يتكلم قائلا :

— غفرانك ياخليفة الرسول أنا « رجلا مسكينا » لايستحق غضبك هذا

— انك تخطىء فى النحو يارجل . وألفاظك ليست عربية . فعلّمْ نفسك وهذبها قبل أن تجرؤ على محادثة العظماء .

ثم رسمت يد رجب بعد كلمة « العظماء » خطاً طويلا جعل يدور هنا وهنالك على الورقة حتى وقف أخيراً بنقطة سوداء

غليظة دلت على نهاية الحديث . وكان رجب قد تعب فرمى بالقلم جانباً وجعل يمسح وجهه ويديه بمنديله . ونظر الى الشيخ عبد الحى فوجده ما زال على خشوعه فنبهه الى أنّ الحديث قد انتهى وعرض عليه أن يأخذ مكانه أمام المنضدة ليحضّر روح الشيخ الامام التى يرغب فى محادثتها . فهز الشيخ عبد الحى رأسه علامة الرفض . ثم أخذ يعود الى جلسته الاعتيادية تاركا التواضع والاحترام جانباً . ومرّت برهة صمت طويلة ارتدى فيها رجب ملابسه بينما كان عبد الحى جالساً ، عارى الرأس يفكر فيما حدث له مع هارون الرشيد . وبغتة صاح سائلا رجبا بصوت عال اضطرب له الأخير .

يظهر لى أن هارون الرشيد كان متحاملا علىّ بلا سبب ... ما هذا الظلم ؟ ... يشتمنى من أجل نكتة تافهة فهتُ بها ... هذه قسوة وحماقة .

فتظاهر رجب بالموافقة وإن كان رأيه فى الحقيقة مخالفاً لرأى زميله . وأتم الشيخ عبد الحى اعتراضه واحتجاجه قائلا :

ومن الغريب أن ينتقد لغتى ويتهمنى بجهل قواعد النحو . وهل قال له أحد اننى « ابن منظور » أو « أبو الأسود الدؤلى » .

فتململ رجب من هذه الاعتراضات وأراد أن يعارض

الشيخ فتكلم ولكنه لم يقل أكثر من هذه الكلمات المفككة لشدة حيرته وتغلب حيائه عليه

— المسألة . . . الرجل استاء قليلا منك . . . أقول قليلا وليس كثيراً

فصاح عبد الحي محتداً :

— وماذا فعلتُ ليستاء مني . كنت أمزح معه . هل كفرت في هذا المزاح ؟ ألم يكن أبو نواس يمزح معه بجرأة فيضحك عليه جميع الجالسين ؟

فاعترض رجب وقد بدأ صبره ينفد وقال :

— هذا كان من الخلفاء العظام ياشيخ عبد الحي . فلم يكن أحد يستطيع أن يضحك عليه

— أوه . أعمل معروف . أين هذه العظمة ومجالس الشراب والغناء والرقص التي كانت تقام كل ليلة تشهد بخلاعته ومجونه .

ثم مال على رجب بعد أن خفض صوته كأنه يخشى أن يسمعه أحد :

— ان الجميع يروون عنه أنه كان سكِّيراً من أعلى طبقة .

فاعترض رجب على كلام رفيقه اعتراضاً صريحاً بشيء من الحدة وقال :

— بل كان رجلا مؤمناً لم تنجب الدنيا مثيلا له فى تقواه وصلاحه . كان يحج سنة ويحارب سنة .

وتلت ذلك مناقشة صغيرة انتهت بسلام .

وقام الشيخ عبد الحى فارتدى ملابسه ولفّ عمامته وخرج مع رجب قاصدين الى حانوت الشيخ المكى . فقابلهما الشيخ بكل ترحاب وأكرمهما بتقديم كاسات الشاى المعطر كالمعتاد . وكان مع الشيخ عبد الوهاب ثلاثة مشايخ من تجار الحجاز كانوا يفاوضونه فى متاجر صغيرة . فلما انتهت المفاوضة اعتدل الشيخ عبد الحى فى جلسته وتأهب للكلام . فتنحنح طويلا منظفا حنجرته كأنه يستعد للغناء . وقال بعد أن أكسب وجهه مظاهر الاهتمام :

ـ لقد استطعنا أن نكلم اليوم هارون الرشيد

فنطق الشيخ المكى على الفور قائلا :

ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ...

ونظر التجار بعضهم لبعض حيارى مدهوشين . ثم سأله أحدهم كيف كلم هارون الرشيد وهو شخص ميت . فأخذ الشيخ عبد الحى يروى لهم كيف تعلم مع رجب افندى فن تحضير الارواح على استاذ مشهور يدعى الحاج حلجيان وكيف برعا فيه

براعة تؤهلهما لان يحضرا أى روح من الارواح فى أى وقت من الاوقات . وأخذ يطنب لهما فى طريقة الاستاذ حاجيان محرضاً اياهم على تعلمها . ثم روى لهم حديث الروح مع رجب هذا اليوم بطريقة لا تتفق مع الحقيقة . فحذف ما خصه وأضاف اليه من عنده كثيراً من الحشو ، وكان فى كل فترة وأخرى يلتفت الى رجب طالباً منه المصادقة على كلامه . فكان رفيقه يضطر أن يوافق على كل ما ذكره .

وانتقل الكلام بعد ذلك من مناجاة الارواح الى أخبار وروايات عن كرامات الاولياء . وكان الشيخ عبد الوهاب المكى متضلعاً فى هذه الحكايات وطالما روى الكثير منها لزبائنه ورفاقه . وكانت له طريقة خاصة فى رواية هذه الحكايات فكان يلقيها ببطء وتؤدة . يمط بعض الكلمات مطاً لا محل له . ويتوقف حيناً عن الكلام توقفاً مقصوداً برهة طويلة وهو ينظر بابتسام فى وجه كل سامع يتفرس فيه كأنه يستطلع رأيه أو يطلب منه إظهار اعجابه . وكثيراً ما يصمت فى موقف مشوق جميل متظاهراً بتنظيف مبسمه (فم السيجارة) أو بتمشيط لحيته باهتمام كاذب . ولم تكن هذه طريقة مستحبة عند سامعيه فطالما ضجروا بالشكاية لأنفسهم منه .

وأخذ الشيخ عبد الوهاب يروى لهما حكاية جديدة لم يروها من قبل . قرأها فى احد الكتب القديمة . وهى عن شيخ كان فى حياته مثال الطهارة والايمان لا يترك فرضاً ولا يحجم عن فعل الخير بعيداً عن المنكرات ، لكنه عندما مات أُخذ الى جهنم ونقلت جثته من قبور المسلمين الى قبور النصارى لذنب صغير أتاه ، أتلف كل ايمانه وصلاحه . وكانت قصة طويلة جعل الشيخ يرويها بطريقته المعهودة متفنناً فى إلقائها ، لا يترك شاردة ولا واردة فيها حتى يوفيها حقها من الوصف والايضاح . وقد توقف عدة مرات عن الكلام كعادته وهو يحملق فى وجوه الجالسين بعينيه الصغيرتين المختفيتين تحت حاجبيه المهدلين . وعند ماوصل الى ذكر الذنب الذى اقترفه هذا الشيخ الصالح والذى من أجله عُد كافراً من نصيب النار ، صمت صمتاً طويلا متظاهراً بمسح عينيه وتنظيفهما بمنديله ثم قام ودخل الحانوت ، تاركا رفاقه فى أشد حالات الانفعال . فصاح به الشيخ عبد الحى مستنجداً وقال :

— الى أين ياسيدنا . الى أين ؟ اذكر لنا أولا ذنب هذا الشيخ الصالح . ثم اتركنا بعد ذلك وشأننا .

فنظر اليه الشيخ المكى بمكر أخفاه تحت ابتسامته العريضة

وأخبره بأنه يريد أخذ شيء من خزانته . وقصد الى الخزانة ثم فتحها بكل بطء وجعل يبحث بحثا وهميا كاذبا فى رفوفها وادراجها وأقفلها دون أن يأخذ شيئا . ورجع الهوينا الى مجلسه امام الحانوت . وأخيراً أتم الحكاية وأخبر السامعين عن الذنب الذى اقترفه هذا الشيخ الصالح ، بعد أن أضجرهم وأيأسهم بصمته وتلكئه حتى كاد صبرهم ينفد . أما الذنب فيتلخص فى أن الرجل مرّ فى ليلة ، غزيرة المطر قارسة البرد ، بقطة صغيرة هزيلة كانت تموء جوعا وتنتفض برداً ، فلم يأبه لها وتركها فريسة الجوع والبرد فماتت فى ليلتها . وبعد اتمام القصة جاء دور التفسير . فأخبرهم بأن هذا الرجل الصالح الذى كانت مظاهره كلها توهم الناس بالصلاح والتقوى لم تكن روحه مؤمنة . بل كانت كافرة بدون أن يشعر بها . كان شخصا ابن خنا من أم زانية وأب مجوسى من عبدة النار .

وأثرت هذه القصة على السامعين تأثيراً كبيراً فجعلوها محور حديثهم حتى نهاية الاجتماع .

— ٩ —

وتوثقت روابط الألفة والصداقة بين رجب والشيخ عبد الحى. فكانا يجتمعان كل يوم تقريباً للمسامرة وقراءة الاوراد وتحضير الأرواح. وأخيراً حلّ الشيخُ ضيفاً دائمـاً عند رجب فأحتل فى منزله حجرة صغيرة. وتطوع من تلقاء نفسه لخدمة صديقه عندما كانت تتغيب أم تبوية عند ابنتها.

وحدث فى ليلة من الليالى — بعد أن صرفا هزيعاً من الليل فى قراءة أخبار الأولياء وكرامات الصالحين — أن رأى رجب فى نومه رؤيا مخيفة قام منها صارخا مذعوراً. واستيقظ الشيخ منزعجاً على صراخ رجب فقام يطلب النجدة والغوث، ظاناً أن لصاً قد سطا على المنزل وأن رجباً ضحية من ضحاياه. فلما علم الحقيقة انقطع صياحه وجلس يرتجف على أرض الغرفة يلهث من شدة الاضطراب. وبعد أن هدأ روع رجب قليلا أخذ يقص على رفيقه رؤياه المخيفة، وكان نور الفجر قد تخلل النافذة الخشبية فأضاء الحجرة بضوء أبيض ضعيف أدخل الطمانينة على قلبيهما، وأبان لكل منهما عن وجه رفيقه الشاحب المصفر.

أما الرؤيا فتتلخص فى أن رجباً وجد نفسه منفردا فى صحراء

قاحلة لا أثر لآدمى أو زرع فيها . فشعر بوحشة ورهبة زادها
ظلام المكان واكفهرار الجو . واذا بنور قد أضاء الصحراء وظهرت
هاوية سحيقة اندلعت من فوهتها ألسنة طويلة من نار هائلة ، لها
أزيز مصحوب بأنات تألم وأصوات استغاثة وتلهف . واختلطت
المشاهد امام رجب فاذا بالصحراء فناء ضيق لدار عالية الجدران
يسطع فى أرجائها نور باهر يخطف الأبصار . واذا بجمع من المشايخ
ذوى لحى بيضاء طويلة ، يشع من وجوههم السمحة الطاهرة نور
الايمان جالسين فى ذلك الفناء على حُصُرٍ نظيفة . فكان كلما اقترب
رجب من أحدهم عبَس الشيخ فى وجهه وردّد قوله : « لست
منا . لستَ منا .. » . ودار على الجمع فردا فردا فلم يحظ منهم إلا
بالازدراء والطرد . ثم شعر كأن يدا هائلة لونها كلون الحديد
المحمى فى النار تقبض على خاصرته وترفعه الى العلا ثم تطوّح به
هنا وهنالك . وأخيرا قذفت به فى هاوية الصحراء ذات اللهيب
الصاخب . فألفاها رجب بحرا زاخرا باللهب المتأجج يرعد فوق
أمواجه أصوات كأصوات القنابل . . . . . واستيقظ من النوم
مذعورا وهو يظن أنه أصبح طعمة لنار جهنم .



﴿ وشعر كأن يداً هائلة تقبض على خاصرته
وتقذف به فى هاوية من اللهب المتأججة ﴾

وتنهد رجب طويلا بعد أن أتمّ رواية حلمه وأمسك بيد الشيخ عبد الحى يشد عليها بقوة . فهدّأ الشيخ روعه وجعل يفسّر له الحلم تفسيرا

جميلا . فأخبره أن الصحراء الواسعة المظلمة معناها الدنيا الخبيثة التي نعيش فيها . ومجمع الفقهاء ذوى اللحى الطويلة هو مجمع الشياطين متنكرين بهيئة الصالحين . واليد الحديدية التي رفعته من بينهم هي يد القدرة الالآهية تريد أن تنجيه من الغواية والضلال . أما الهاوية السحيقة ذات الأمواج الملتهبة فهى الجنة التي وعد الله بها المتقين . تحت اللهب النارية سماء صافية وحدائق وافرة الظلال تشقها جداول من ماء سلسبيل ، يسبح فيها الحور والولدان .... ثم أخذ يسهب له في وصف الجنة وما حوته من روائع وبدائع ، ومكان كل منهما فيها ، حتى اطمأن قلب رجب واستبشر خيرا فقام الى رفيقه وعانقه طويلا . وأمضيا الوقت يتحدثان عن دار النعيم وما سيلقيانه فيها من حياة رغدة خالدة .



— ١٠ —

ومضى أسبوع ورجب يرى فى نومه نفس الرؤيا المزعجة بتفاصيلها الدقيقة ، كأنها رواية يشاهدها كل ليلة على مسرح التمثيل وكان يقوم من النوم فى نفس الوقت منزعجاً يصرخ ويستغيث . فاستولت عليه كآبة مظلمة وطلب من الشيخ أن يقاسمه حجرة نومه وأن يؤانسه الى ساعة متأخرة من الليل . وكان اذا اقترب من فراشه يريد النوم شعر بقشعريرة تدب في جسمه وتخيل حوله مجمع الفقهاء الصالحين يرددون امامه بصوت رهيب قولهم :
« لستَ منا . لستَ منا »

وفشلتْ مجهودات الشيخ عبد الحى فى ردّ الطمأنينة لقلب رجب . وكان كلما حاول تفسير الرؤيا تفسيراً طيباً تصدى له صديقه ونقض أقواله من أساسها مفنداً اياها ببراهين قوية

وأخيراً قرّ قرار رجب على استشارة الارواح فلم يعارض الشيخ عبد الحى في ذلك . وقام الاثنان الى المائدة الثلاثية الارجل وجلسا حولها ، وطلب رجب روح خالد بن الوليد الصحابى والقائد المشهور . وسألها أن تجيبه صراحةً عن تفسير حلمه وكانت ساعة رهيبة دق فيها قلبه دقات الخوف والهلع . ولمّا

تمت اجابة الروح وضع القلم جانباً بكل سكون وأحدق بذهول في الورقة التي كانت أمامه . وشعر بثقل شديد في رأسه ووهن يتمشى في سائر أعضائه . واذا بنور يخبو شيئاً فشيئاً أمام عينيه وتحل مكانه ظلمة حالكة ، ورأى كل شيء حوله يتضاءل ويتلاشى . واذا بالشيخ عبد الحي ينكمش متداخلا في بعضه وكأن قوة سحرية جذبته من الخلف بشدة وجملته يتصاغر بسرعة حتى غدا نقطة صغيرة لا تكاد تميزها عيناه . واذا بهزة عصبية شديدة سرت في جسمه تبعتها عدة هزات أخرى . ثم انطرح على الأرض كالمصروع . فاضطرب الشيخ عبد الحي وهرول الى « القلة » وجعل يرش ماءها على وجهه بغزارة وهو يصرخ في أذنه منادياً اياه . وكان شعوره رجب بما حوله ضئيلا : يسمع نداء الشيخ ضعيفاً كأن المسافة التي تفصلها شاسعة ، ويشعر بماء القلة البارد ينسكب على وجهه كأنه رذاذ من ماء المطر . ثم أخذ يعود الى حسه الطبيعي بالتدريج . وما كاد يرفع رأسه قليلا حتى انفجر باكياً ينوح نواح الأطفال . لقد إكدت له الروح التي سألها الساعة أن ايمانه مشكوك فيه وأن الحقيقة سر من الأسرار الألهية . هناك الهاوية المتأججة بنار الجحيم تقترب رويداً منه . والمستقبل مجهول بيد الله

وكفّ رجب عن بكائه وأخبر رفيقه عن اجابة الروح . وكان وجهه مطبوعاً بطابع الألم ، ينبعث من مجمل هيئته ذلة وضعف واستكانة . فدنا الشيخ منه واسرّ في أذنه قائلا :

— ألا يمكن أن تكون هـذه الروح التى كلمتك الساعة روح واحد من أعوان ابليس ؟ ألاَ تتذكر أن أستاذنا الحاج حلجيان أخبرنا بوقوع خلط كثير فى تحضير الأرواح ؟

فهزّ رجب رأسه بكآبة وظل صامتاً . وبعد قليل جاءت أم نبوية فطلب منها رجب أن ترقيه . فقبلتْ عن طيب خاطر وشمّرت عن ساعدها وجمعتْ أصابعها فى قبضة واحدة وأخذتْ تديرها على رأس رجب وهى تتمتم برقيتها . وكان الشيخُ عبد الحى يراقبها مراقبة تجلى فيها الاكبار والاجلال . فقد كانت هيئتها وهى منهمكة فى قراءة الرقية تشبه هيئة الأولياء الصالحين شعر رجب ببعض الراحة وجعل يتثاءب على التوالى . فأخـذ الشيخ وأم نبويه يتثاءبان أيضاً . وكانت الحجرة هادئة بدأتها تكتسحها جيوش المساء ، لايسمع فيها الاّ صوت المرأة يتضاءل رويداً . وكثر التثاؤب بأصوات عالية والتمطى بحركات عنيفة . وخيّم على الجميع خمول شديد . وأطبق رجب جفنيه وغط فى

نومه على آخر كلمة من كلمات الرقية . أمّا الشيخ عبد الحى فانتحى ناحية النافذة وجلس تحتها القرفصاء معتمداً رأسه بين يديه وأخذ يفكر فى هدوء وخمول . وقامت أم نبوية بعد أن أتمت مهمتها بنجاح ، تجر قدميها جرًّا وقصدت بتمهل الى حجرة المخزن ونامت فيها



— ١١ —

ومضى أسبوع آخر والحلم ملازم رجب فى يقظته ومنامه . واجابات الارواح غامضة لكنها تنطوى على معانٍ مخيفة . وتفسيرات الشيخ عبد الحى اضحتْ سخيفة مملة . فضاق صدر رجب . وصاح بغتة قائلا :

— لماذا لا أذهب الى أستاذى حلجيان وأطلب معونته فى هذه الازمة العصيبة :

فضرب الشيخ عبد الحى رأسه بيده وصرخ مجيباً رفيقه :

— حبذا الفكرة . كيفَ لم تطرأ علىّ قبل الآن . . هلمّ

وسرعان ماركبا الترام ووصلا لمنزل حلجيان . فقابلهما بكل بشر وترحاب . وقادهما الى حجرة « المشورة » وسألهما برفق عن حاجتهما فتكلم الشيخ عبد الحى مجيباً بالنيابة عن رفيقه . وأخذ يشرح للاستاذ قصة الحلم المخيف واجابات الارواح الغامضة . وكانت القصة مثيرة لاهتمام حلجيان فنظر الى الشيخ طويلا . واخذت دائرة عينيه تتسع ، وحاجباه يرتفعان ، وفمه ينفرج . ثم بدأ يشعل لفافة من التبغ وجعل ينفخ الدخان من فمه وأنفه بكثرة وعلى



«وجعل ينفخ الدخان من فمه وأنفه بكثرة وعلى أشكال متعددة»

أشكال متعددة . وكان الشيخ عبد الحى يعجب بطريقة حاجيان
هذه في التدخين . وهى الطريقة التى يستعملها عادة عند حل "المعضلات

أما رجب فكان اثناء ذلك صامتاً لايتحرك ينظر بحسرة الى استاذه ويُعدّ نفسه لسماع حكمه عليه . والتفت اليه حاجيان أخيراً وبدأ يوجه الاسئلة اليه . وكان يحملق فيه بإمعان ويكثر من فتل شاربه . ويحرك يدَه حركات تشبه حركات المشعوذين . كان يطرح السؤال ولا ينتظر الاجابة عليه بل يجعل يتكلم عن نفسه باسهاب . ويدور فى الكلام دورات غريبة . فبينما هو منهمك فى رواية قصة شيقة وقعت له تدل على ذكائه ومهارته اذ به يباغت رجبا بسؤال جديد ثم يعود الى اتمام قصته . . . وهلم جرا . وأخيراً أخبر رجبا انه لن يستطيع أن يخبره بشيء عن مسألته الا بعد عمل الاستخارة الليلة على المسبحة بعد صلاة العشاء مباشرة ، واستجواب الارواح قبل صلاة الفجر . وزعم أن هذه هى الطريقة المثلى المتبعة فى مثل هذه الاحوال .

* * *

وعند عودة رجب والشيخ عبد الحى الى المنزل استلم الشيخ برقية من أحد اقربائه يستدعيه حالا الى البلدة لوفاة أحد أعمامه واستلام حصته فى الميراث . فاقترض من رجب ثمن التذكرة وسافر فى اليوم نفسه ، واعدا رجبا بالعودة بعد اتمام توزيع الميراث .

وشعر رجب بالوحشة تملأ نفسه بعد رحيل صديقه وأمضى بقية اليوم وحيداً تتنازعه عوامل القلق والهم . وفى الصباح بكر فى الذهاب الى حلجيان . ولما صارا منفردين فى حجرة « المشورة » أجلسه الاستاذ على مقعد بالقرب من المكتب ، وجعل هو يسير فى الغرفة ذهاباً واياباً مطأطىء الرأس كأنه مشغول بدرس موضوع عميق . وكان رجب يراقبه خلسة مراقبة تجلى فيها الفزع . وأخيراً وقف حلجيان بغتة امام رجب وحك رأسه الاصلع بخنصره . وقال له على الفور :

— ليس أمامك الآن الاّ حلّ واحد ، اذا أردتِ خلاص نفسك من عذاب الشك .

فحملق رجب فى وجهه وهو يكاد يبتلعه بنظراته الجائعة وقال بلهجة التلهف والاستعطاف :

— وما هو هذا الحل يا أستاذى ؟ قل لى بربك وانقذنى من عذابى الاليم .

ولكن حلجيان تابع سيره فى الغرفة ذهابا واياباً وقتا ليس بالقصير ، حتى كاد صبر رجب ينفد . ثم عاد الى مكتبه بسكون وضرب جبهته بيده وقال مجيباً رجبا على سؤاله الاخير :



وضرب جبهته بيده وقال . . .

— هو أن تلجأ الىّ بكليتك وتمنحنى ثقتك . لانه بدون ذلك لا أستطيع أن أنفعك بشىء . . . الثقة قبل كل شىء . . . هاك يدى ممدودة لانقاذك فهل ترفضها.

فصرخ رجب بانفعال شديد واكبّ على يد أستاذه يقبلها بحرارة ، قائلا :

— أنا لك يا أستاذى . كلى لك . فاطلب منى ماتريده .

فابتسم حلجيان ابتسامة هادئة وقال :

— بارك الله فيك يابني . هذا عهدى فيك .. ألا فاشكر الله الذى هداك الى .

— انى معتمد عليك ، بعد الله ، فى خلاصى من محنتى . وقد وهبتك حياتى ووضعت تحت أمرك كل مالى . فتصرف فيهما كيفما تشاء .

فشد حلجيان على يده .



— ١٢ —

وبدأ رجب يعطى استاذه عن سعة مؤملا نجاته على يده . وكان يتبع تعاليمه حرفياً فيحضر حلقات الاذ كار التى كان حلجيان يقيمها من أنفار البرابرة والصعايده والمجاورين الغرباء . وكان يقيم الصلاة مئات من الركعات فى اليوم ويصوم الايام المتوالية ، ويعدد على المسبحة اسماء الله الحسنى وبعض نبذ من كتاب دلائل الخيرات آلاف من المرات . فأثرت هذه الفروض الثقيلة تأثيرا كبيرا عليه جثمانيا ونفسيا وماليا . فضمر جسمه وشحب لونه وغارت عيناه . وتحولت نفسه من نفس هادئة تنعم بالاطمئنان والراحة الى نفس حيرى ترسف فى اغلال الشقاء والكرب . واختل مزاجه العصبي اختلالا كبيرا فساورته المخاوف ليل نهار وأصبح « الشك فى أمر ايمانه » فكرة متسلطة على دماغه لا تبرحه حتى فى ساعات نومه . أما ماليته فكانت سائرة الى الافلاس على عجل ، اذ كان حلجيان يرهقه بطلباته التى لم يكن ينضب لها معين . وكان يتفنن فى هذه الطلبات تفننا عجيبا . فمن اجرة للاستخارات الى ثمن للنذور الى مبالغ للاذكار والزار الى صدقات وهمية للفقراء .

واستمر الحال على هـذا المنوال عدة أشهر . وطالت غيبة الشيخ عبد الحى فى بلده ولم يسمع رجب عنه خبرا ما ويأس من عودته . وتيقن انه قد استوطن قريته من جديد بعد ان نال حصته من ميراث عمه . وكان كلما استوضح حلجيان عن مسألته طلب منه الاخير ان يتركه يعمل على مهل وان يتدرع بالصبر ، بينما كان ينفث فى قلبه من حين لآخر سموم الشك القاتل . فاذا رآه فى اسوأ حالات اليأس أنفذ الى قلبه وميضا ضئيلا من نور الامل يحيي موات نفسه من جديد . وهكذا كان يلعّب حلجيان « ارجوزه » وفق مشيئته ويستدره مالا وفيرا وطاعة عمياء وثقة لا نهاية لها .

وتدرّجت حياة رجب من سيء الى اسوأ فنفدت نقوده جميعها . والتجأ الى عمه يقترض منه فلم يمنع عنه عمه شيئاً فى بادىء الامر . ولكن الاقتراض انقلب استجداءا متتابعا . فتمامل العم وبدأ يرفض . ونصحه ان يعود الى العيش معه كسابق عهده فيقاسمه ماله ومنزله ويغدو عميد الاسرة من بعده .

واصيب رجب بأرق شديد لم تنجح فيه حيلة . وتراءت له الاشباح دائما فصار يرهب الظلام ويقضى الليالى بجوار نور المصباح فزعا مبلبل الفكر مضطرب الاعصاب . واذا غلبه النعاس

وارتمى على فراشه مثقل الرأس ، وهبت على المصباح نسمة من نسمات الليل اطفأته ، واستيقظ بعد ذلك على اية حركة ضئيلة فهناك الكارثة الكبرى ، اذ يشعر كأن الغرفة قد امتلأت بالشياطين يريدون أن يجروه الى هاوية الكفار . فيُدخل رأسه تحت لحافه ويضم أطرافه بعضها الى بعض فيغدو كتلة لا يعرف مبدؤها ومنتهاها . وربما مكث على هذه الحالة ساعات متواليات وهو فى أشد حالات الانزعاج . ولا يهدأ له روع حتى ينفذ من نافذته أوّل شعاع من أشعة الفجر فيرفع الغطاء عن رأسه وينظر الى ما حوله متلصصا فاذا ما رأى النور ذكر الشهادة عدة مرات وقام يستنشق هواء الصباح العليل . .

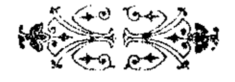
ويمضى بقية النهار فى حجرته لا يرى فيها وجه مخلوق غير أم نبوية فى بعض الأحيان . واذا خرج من داره تحاشى رؤية الناس حتى انه غير طريق سيره ليتلافى المرور أمام دكان الشيخ عبد الوهاب المكى . لقد كان يخشى الناس جميعا وينفر منهم جميعا . وكان يخيل اليه وهو سائر فى الطريق أن عيونهم ترمقه شزراً وأنهم يتهامسون عليه محذرين بعضهم بعضا منه . وشعر كأن الاثم والمنكر والضلال وخاصة الكفر قد انطبعت جميعها على محياه فأصبح من العبث أن يخفيها . فكان يسير خجلا لا يلتفت



ويشعر كأن الغرفة قد امتلأت بالشياطين ..

يمينا أو شمالا . يجدّ فى السير ليهرب من سخرية الناس الوهمية به واحتقارهم إياه .

وبدأ يشعر بذل الحاجة فتقشف فى طعامه مضطراً . ولولا بعض المآكل التى كانت تأتيه بها أم نبوية رأفة به لامضى الليالى والايام فريسة الجوع . أما منزله فقد خلا من الأوانى والأثاث ولم يبق فيه إلا حصيره الممزق وملابسه المهلهلة .



- ١٣ -

وبدأ ينتابه من وقت لآخر ذهول غريب فيشعر كأنه انتقل الى عالم آخر لا يرى فيه من المناظر إلا كل مبهم مشوش - عالم مملوء بالاشباح المخيفة والارواح الشريرة ثم يعود بالتدريج الى حالته الاعتيادية فيظن نفسه أنه غفا غفوة قصيرة انتقل فيها الى عالم الاحلام.

ورجع مرة الى منزله على أثر مقابلته لحلجيان وكانت مقابلة مرهقة عذّبه فيها استاذه بشعوذته الغريبة وسلبه ما يمتلكه من نقود قليلة كانت ثمن طعامه هذا اليوم، فأمضى الوقت وحيداً يفكر فى حالته وما وصل اليه من بؤس وفقر. وقرصه الجوع فلم يجد ما يتبلغ به غير قطعة جافة من الخبز لم يستطع قضمها فبلها فى الماء ورش عليها قليلا من الملح وأكلها بشره. وجلس متربعا على الحصير واعتمد بذقنه على كلتا يديه وحملق أمامه وهو يشعر بالنار يتأجج لهيبها فى رأسه. جلس جلسته هذه مدة لا يعرف مداها، لم يتحرك أثناءها حركة واحدة. ثم صحا رويدا وقام متكاسلا فنظر حوله نظراً مشدوهاً غريباً. وأخذ يسائل نفسه عن هذا المكان وكيف وُجد فيه. ثم تدرج الى نقطة عويصة وقف

فكره امامها جامدا لا يعرف لها حلا . وابتسم ابتسامة خفيفة ثم تكلم بصوت مسموع وهو يفكر بجهد قائلا :

— ألا أستطيع أن أعرف من أنا ؟

وأخذ يكرر بصوت عال سائلا نفسه من هو . واشتدت مجادلته مع نفسه واتهامه إياها بالخبث وإخفاء الحقائق عنه .

وفكر كثيرا فلم يهتد الى جواب لهذا السؤال مطلقا . فأخذ يروح ويجيء بسرعة فى الغرفة . يقعد تارة ويهب واقفاً أخرى ثم يتكلم بصوت خافت كأنه يهمس فى أذن أحدهم راجياً منه ببساطة أن يخبره من هو . وحين تعييه الحيلة في معرفة هذا السر بالالين يعود الى الصراخ شاتماً لاعناً . وفى هـذه اللحظة دخلت أم نبوية الحجرة وهرعت اليه تسأله ما الخبر . فكرر لها السؤال فارتاعت وأخذته جانباً وأجلسته على كومة فراشه التى فى ركن الغرفة وأتت له بالقلة ليشرب منها . ثم طلبت منه أن يغسل وجهه بالماء فلبى طلبها . وأخذت تلاطفه وتهدئه وتبعد عنه هذه الفكرة الغريبة حتى استطاعت فى النهاية أن تنسيه اياها .

وأفاق رجب من ذهوله وعاد الى حالته الاعتيادية . وفكر فيما وقع له فاتضحت له حقيقة أمره فارتعد فزعا ودنا من أم نبوية يستوضحها عن حقيقة الأمر . فحاولت عبثا اخفاءها عنه ولكنه

استطاع أن يعلم منها ما يريد . وكان وقعه ألماً في قلبه فاصفر وجهه وارتجفت أعضاؤه واندفع يبكي بحرارة وألم وهو ينطق بكلمات وجمل لا رابطة بينها . فأخذت أم نبوية تهدئه من جديد وهي تمسح بين فترة وأخرى دموعها المتساقطة على خديها . وبغتة قام رجب فدفعها جانبا وهرول الى الخارج هاربا عاري الرأس والقدمين ، في أقسى حالات انفعاله . فخرجت المرأة على أثره تريد اللحاق به خوفا عليه أن يصيب نفسه بأذى . ولكنها لم تكد تصل الى عتبة الباب الخارجي حتى ارتمت على الارض واهنة القوى تلهث من شدة التعب . ولما تحققت أنها لن تستطيع اللحاق به شرعت تناديه بصوت ضعيف متقطع مستحلفة اياه بأغلظ الايمان أن يرجع اليها ويرحم نفسه . ولكنها لم تحظ منه بجواب وسرعان ما اختفى عن نظرها . فأخذت تنادي الناس بولولة ، مستحلفة اياهم أن يلحقوا به ويمنعوه من اضرار نفسه . فاجتمع عليها رهط من النساء والرجال والاطفال يسألونها بلهفة ما الخبر ؟ وقد ظنوا أن أحداً مات في المنزل . فلما علموا منها أن الأمر ليس فيه موت تفرقوا صاخبين لانها أقلقت راحتهم على شيء لا يستحق الاهتمام . ولكن الاطفال عزموا على اللحاق برجب ورأوا في ذلك لعبة جديدة يتسلون بها . وما كادوا يصلون الى نهاية الحارة حتى انقلب عزمهم على اللحاق به الى مسابقة فيما بينهم وعادوا وهم يضحكون فرحين .

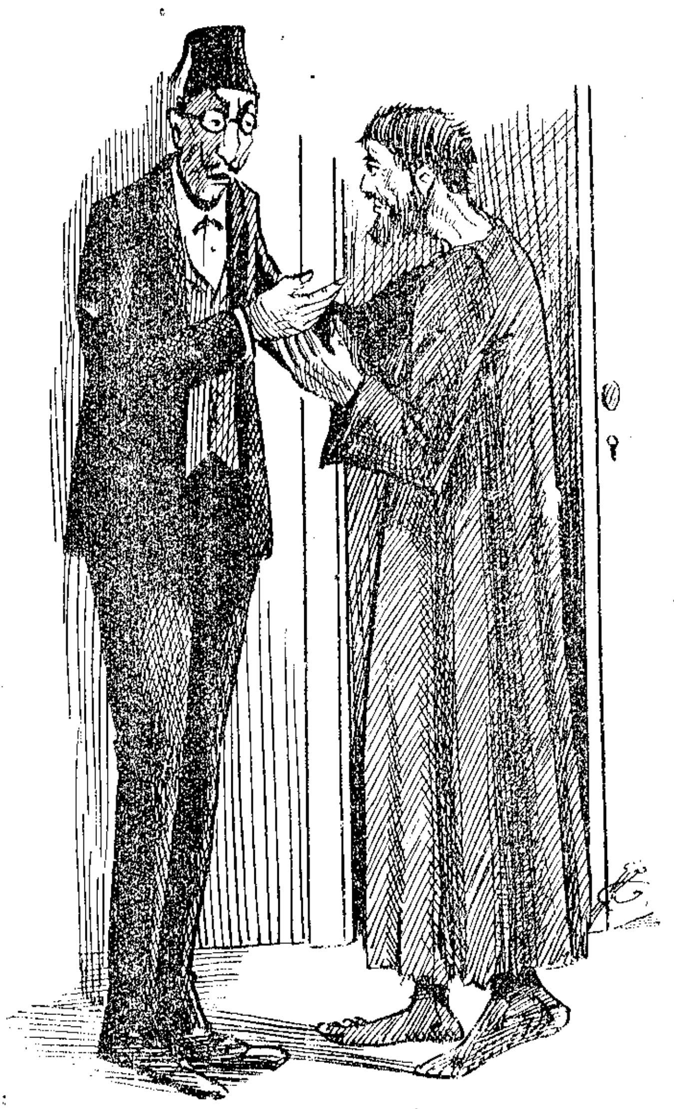
— ١٤ —

خرج رجب يجرى صوب محطة الترام قاصداً الذهاب الى حلجيان . ولكنه لم ينتظر وصول القطار ليركبه بل تابع عدوه بجوار الشريط الحديدى حتى وصل الى منتصف الطريق . وقد مرّ بجواره ثلاثة قطارات متجهة نحو « السيدة » فأراد تسلقها ابان سيرها فأخفق . وكاد ينجح فى المرة الأخيرة ولكن قدمه انزلقت فوقع على الأرض واتسخت يداه وملابسه بالطين اذ كان الطريق حديث الرش . وأصيب بجرح فى خده سال منه الدم . ولما أنهكه التعب أخيرا انتحى ناحية فى الطريق وجلس على حجر ينظف يديه وملابسه ويجفف دمه الممزوج بعرقه . وكان يتنفس تنفس المحموم فى أشد حالات مرضه . وانطبع على محياه طابعا الخوف والألم بأقسى معانيهما . وأخذ العرق يسيل على وجهه خيوطا متعرجة بلون التراب كانت تختلط بخيوط الدم المنبثق من جرحه فتكسبه بشاعة وقبحا .

ولما نال قسطه من الراحة قام متمهلا يتابع سيره الى أن وصل

الى منزل حلجيان . ولاقاه الرجل فى "حجرة الانتظار فنظر اليه مليًا يفحصه وقد أخذه العجب من هيئته وساورته الشكوك فى أمره ولكنه اضطر بحكم الظروف أن يُدخله فى حجرة « المشورة » وأن يسأله عما به . فركع رجب أمام أستاذه وأخذ يده بشدة ولهف بين يديه وجعل يقبلها ويذرف الدموع . فأخذ حلجيان يهدىء روعه ثم سأله أن يشرح مسألته لينظر فيها . فجلس رجب القرفصاء على الأرض يروى قصته الجديدة . وكان كلما تعمق فى الرواية باسطا لأستاذه حوادثها كان الفزع يتسرب رويدا الى قلب حلجيان ، وقد راعه من رجب نظراته الزائغة المخيفة .

تأكد حلجيان أن رجبا يجتاز فى هذه الآونة أزمة عقلية شديدة الخطر . فعزم أن يتخلص منه نهائيًا ، اذ وجده لا نفع منه بعد اليوم . فانتظره حتى أكمل حكايته ثم دنا منه وهو يتكلف الابتسام ووضع يده على كتفه وهزّه بدعابة مطمئنا اياه . وتكلم ولكن بدون مقدمات . فأخبره بأنه لا خوف عليه مطلقا من هذه النوبة فما هى إلا بداية حسنة تبشر بالنجاح . والآن يستطيع أن يتأكد أن مسألته العاصية قد حُلّت على الوجه الأمثل .... وكانت



ووضع يده على كتفه وهزه بدعابة مطمئنا اياه

مفاجأة فى غير موضعها . فنظر اليه رجب بذهول لا يعى ما يقول
فلما رآه حاجيان بهذه الصورة لاطفه مرّة أخرى ، مظهراً له التودد
والاخلاص ، وأعاد عليه ما قاله بصوت أكثر وضوحاً من سابقه
فلم يزدد رجب إلا دهشة وذهولا . ووقف صامتا لا يتحرك .
فتضايق حاجيان ولكنه كظم ضيقه، وابتسم بتصنع زائد وأعاد
عليه كلامه المرة الثالثة ولكن بصيغة أخرى وبلهجة أقوى .
وأخيراً تكلم رجب بعد أن دعك عينيه بكلتى يديه . وكان
صوته أجش النبرات مرتجفا :

— أحقا ان مسألتى قد حُلّت على الوجه الأمثل . ولن أعد
أخشى مكروها بعد اليوم ؟ ! ولكن كيف ذلك .. كيف ذلك !

فحدجه حاجيان بنظرة حادة وأجابه ، وقد بدأ صبره ينفد :

— طبعاً انتهى كل شيء على أحسن حال . ألا تثق فى
كلامى ؟ .. ألا تصدقنى ؟

— عفواً . عفواً . ولكنك تخفى عنى الحقيقة ...

— كيف ذلك . والحقيقة ما ذكرت

— اخال أن المسألة قد انتهت على شر ما يكون . وضاع كل

أمل فيها .

ثم خنقته العبرات دفعة واحدة فأخذ يبكى أمام حلجيان بكاء مراً . ودنا منه حلجيان وجعل يسكته تارة باللين وتارة بالشدة ، ورجب لا يستمع إلا لوحى قلبه فيزداد بكاء ونحيباً. وأخيراً هزّه حلجيان بغضب وأخبره أنه على موعد مع أحد الزوار فيجب أن يكفّ عن بكائه ويكتفى بما سمعه منه . ولكن رجباً كان مندفعاً فى البكاء فلم يدرك من كلام حلجيان شيئاً . وأمسك بيديه متشبثاً بهما وأخذ يقبلهما بحرارة ويغسلهما بدموعه الغزيرة وهو يستعطفه راجياً منه أن يخبره بالحقيقة . فدفعه حلجيان بشدة وصرخ فيه بحنق قائلا :

— لقد قلتُ لك كل شىء . فليس عندى ما أقول .

فعاد رجب يقترب منه وأراد أن يمسك بيديه . فتدارك حلجيان الأمر ودفعه الى الخلف دفعة صدمت رأسه ببلاط الغرفة فانفتح جرحه وأخذ الدم يسيل منه بغزارة . فانزعج حلجيان ولم يعد يعرف ما يفعل . ثم هرول نحو الباب وفتحه بسرعة واتجه نحو رجب وهو يصيح فيه صياحاً خافتاً ، يأمره أن يخرج فى الحال . فشعر رجب بألم ودوار من أثر الصدمة فقام متمهلا وجعل يمسح

جرحه بيده القذرة . فلطخ الدمُ وجهه وأكسبه هيئة مخيفة بشعة .

وأخذ حلجيان يدفعه نحو الباب بشدة وعنف . فتوقف رجب يتبين الأمر . ولكن حلجيان كان جادا فى دفعه . فالتفت اليه رجب وقال :

— دعنى وشأنى . اتركنى .

— ليس عندى وقت لسماع كلامك .. أخرج . أخرج .

فلمعت عينا رجب بوميض غريب وتشبث فى موقفه صامتا .
وصرخ حلجيان من جديد يأمره بالخروج . ولكن بلا جدوى وأخذ يدفعه فلم يتحرك . فتسرب الى قلب حلجيان الخوف ووقف متحيراً . وأخيراً اقترب منه وتكلف بعض مظاهر البشاشة والرضى وسأله قائلا :

— والآن ماذا تريد ياعزيزى . ألم أخبرك بكل شىء . ألم أطمئنك على نفسك .

فتكلم رجب بصوت أجش وهو ينظر الى حلجيان نظرا تائها مريعاً وأجاب :

— أريد أن أعلم الحقيقة .

فنظر اليه حلجيان برعب ولم يتكلم . كانه يفكر فى مخرج له من هذا المأزق الحرج . ولكن رجباً قطع عليه تفكيره بأن دنا منه وقد جحظت عيناه وتلبد وجهه بغمامة كَدِرة وقال بصوت متهدج :

— كنت تكذب عليّ ، كنتَ تغشنى

فتكلم حلجيان متلجلجاً :

— أنا أكذب عليك يا بنى . أنا . أنا . ؟ !

فصرخ رجب من أعماق قلبه صرخة هزّت كيان حلجيان بأكمله فاصطكت أسنانه هلعها وبدأ العرق يغمر وجهه . واقترب منه وأمسك بكتفه بشدة وقال :

— أريد أن أعلم الحقيقة !

لقد انقلب رجب فى لحظة من حمل وديع كان يبكى مستعطفاً الى نمر مفترس أخذ يزؤر هائجاً . وبلغتْ الحيرة والرعب حديهما عند حلجيان فأراد أن يتخلص من رجب هارباً فلم يستطع اذ كانت قبضة رجب كمخالب الباشق قد انشبت أظافرها فى كتفه . فلم يجد الرجل أمامه غير الاستغاثة فاراد أن ينادى مستنجداً بخادمه ولكن رجباً أمسك برأسه وسد باحدى يديه فمه . فارتعد

حلجيان وجعل يستعطفه بحركات يديه ونظرات عينيه . وأخيراً رفع رجب يده عن فم حلجيان ليدعه يتكلم . فقال الرجل مسترحماً :

— ارحمني وأخل سبيلي . أنسيت يا بني أني أستاذك . . . أعطني يدك لأقبلها .

— مستحيل أن أتركك قبل أن تخبرني عن الحقيقة .

ولكن أيّة حقيقة . ألم أخبرك بكلّ شيء ؟

— أريد أن أعلم هل نصيبي الجنة أم النـار . أأنا مؤمن أم كافر . تكلم . تـكلم سريعاً .

— نصيبك الجنة بلا ريب . .

فصرخ رجب قائـلا :

— أنت كذاب . كذاب .

وأمسك برقبة حلجيان وشد عليها بقوة وهو يقول :

— عجّل باخباري عن الحقيقة .

فصرخ حلجيان باختناق صراخاً متقطعا وأجاب :

— أني أختنق . . أموت . . دعني أتكلم . .

— أخبرني عن الحقيقة

وجعل يزيد الضغط على رقبـة حلجيان . فجحظت عيناه

وتدلّى لسانه واكفهر وجهه . فاشار الى رجب اشارات يُفهم منها أنه سيعترف له بالحقيقة . فخفف رجب الضغط قليلا واستحثه على الاجابة فتكلم حاجيان بجهد وهو يرتجف من هول الموقف ، قائلا :

— الحقيقة أنك كافر و نصيبك النار .

فسرت فى جسم رجب رجفة مريعةُ وكشر عن أنيابه ، يبتسم لحاجيان ابتسامة مرة كريهة كابتسام الوحش الذى يهزأ بفريسته . وقال له :

— آه ، ألم أقل لك انك رجل منافق ؟ كنت تضحك علىّ أليس كذلك ؟

فاعترض حاجيان بيده وهو لا يستطيع الكلام . وأخذ رجب يضحك ضحكات طويلة مختلفة . وعاد الى الكلام فقال :

— اذن سأذهب الى جهنم . . هذا جميل جداً . ولكن أنت الى أين تذهب . ألى الجنة ؟ !

ورنت ضحكة مخيفة هائلة . وأتم كلامه قائلا :

— كلا لا أدعك تذهب الى الجنة مطلقا لقد حكمتُ عليك بالذهاب معى الى النار . أفاهم ما أقول ؟

وجعل يشد على رقبة حاجيان بقسوة وهو يتكلم بصوت

خافت خشن :

— مستحيل أن أذهب بمفردى الى النــار . يلزمنى رفيق وها قد وجدتك . فانت نعم الرفيق . تعال معى . تعال . .

وجعل يضغط على عنق فريسته بتمعن واهتمام حتى أجهز عليه ولـكنه لم يتركه حتى ناله التعب . وخشى أن يفلت منه من جديد فجلس على الجثة وهو يحدق فيها بجنون . . .



— ١٥ —

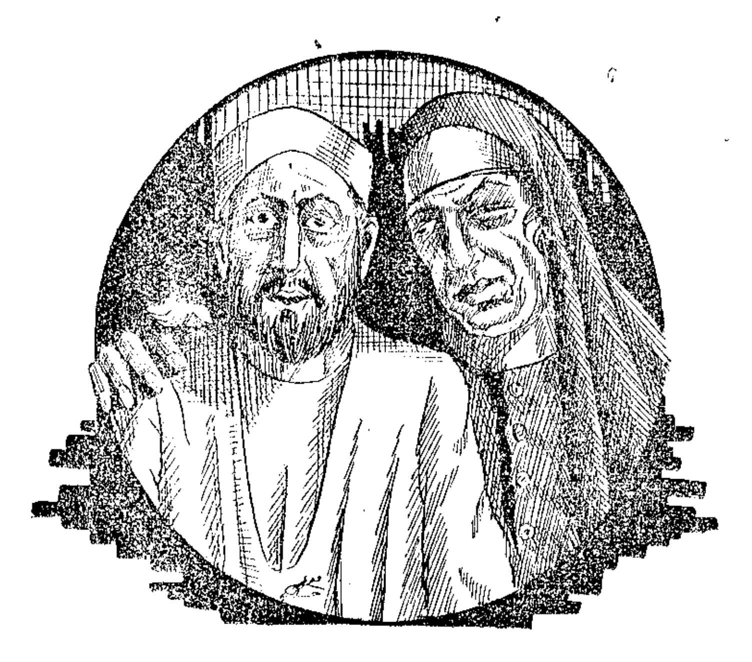
وصدرت جرائد المساء وفى محلياتها النبذة الآتية :

﴿ جريمة فظيعة فى حى السيدة زينب ﴾

« جاءنا والجريدة ماثلة للطبع خبر جناية فظيعة ارتكبها المدعو رجب ابراهيم من سكان سيدنا الحسين اذ قتل خنقا المرحوم الحاج احمد حلجيان من رعايا الحكومة المحلية . وسمسار عقارات وأطيان فى محل عمله بالسيدة زينب . وقد قبض البوليس على المجرم وساقه الى القسم فاتضح أنه مختل الشعور ... »

* * *

وبذلك أسدل الستار على حياة رجب الأولى ورفع الستار عن حياته الثانية فى مستشفى المجاذيب حيث يمضى فيه بقية أيامه . وقد أنكره عمه وسائر معارفه إلا شخصاً واحداً بقى مخلصاً له وفياً على عهده للنهاية . وهذا الشخص هو « أم نبوية » التى كانت تذهب لزيارته كل أسبوع فتقدم له بعض الحلوى والمآكل وتبكى بجواره كما تبكى على ضريح ابن لها .



وهذا الشخص هو أم نبوية التي كانت تذهب لزيارته كل أسبوع

تمت

المحكوم عليه بالاعدام

كلمة المؤلف

بعد انتهائي من تصحيح « رجب أفندى » وتسليمه المطبعة رأيتُ القصة أقصر من أن تملأ كتاباً في الحجم الذي اعتدتُ تقديمه لجمهور القرّاء الافاضل . لذلك أضفتُ قصة « المحكوم عليه بالاعدام » على السابقة . والقصتان من نوع واحد تقريباً ، اجتهدتُ أن أصوّر فيهما صوراً من الفزع والرهبة ، وأن أحلل شخصيتين من الشخصيات المريضة . فأرجو أن أكون بعملي هذا قد وُفّقتُ لارضاء قرّائي الافاضل . ؟

المؤلف

المحكوم عليه بالاعدام

— ١ —

دخل قاسم بك حديقة جروبى ودار بعينيه فى الجالسين ؛ وكانوا رهطاً من الاوانس والسيدات والشبان والرجال ، يجتمع كل ثلاثة أو أربعة منهم حول مائدة عليها كؤوس المشروبات أوصحاف المأكولات الخفيفة . وكانت الثريات تنير الظلمة التى عجّلت قدومها ظلالُ الأشجار المتعانقة المزدحمة الأغصان . وكان يسود جوّ المكان همهمة عامة ليست بالجلبة العالية ولا بالهمس الخفيف اذا أنصت اليها الانسان انصاتاً تاماً استطاع أن يميز عناصرها التى كونتها : فهذا يتكلم وهذا يضحك وهذا يقرع طبقه بملعقته وهـذا ينادى الخادم . . . يندر أن تجد بين الجالسين شخصاً ليس مهندماً ، لا يليق وجوده فى هذا المكان بين هؤلاء القوم

أخذ قاسم يدور بعينيه فى وجوه الجالسين ثم أشرقتْ على وجهه ابتسامة صغيرة وأشار بيده الى أشخاص منزوين فى ركن بعيد إشارة عادية كأنه يقول لهم : « هذا أنتم ! »

ذهب الى أصدقائه فصافحهم واحداً واحداً . ثم جلس على مقعد وهو يردد قوله :

— لا أدرى لماذا اخترتم هـذا المـكان المنحبس الهواء . ألم تجدوا محلا خيراً منه ؟ .

وكان رفاقه ثلاثة : منصور ، وقدرى ، ونجيب . يحملون لقب بك كـكافة الناس الذين فى درجتهم وعلى شاكلتهم . أما منصور ففتى عاطل يضرب به المثل فى البطالة والـكسل . ليس له من شاغل يشغله فى الحياة ، ولا مطمع أو أمل فيها إلا أن يعيش كما هو عيشة الـكسالى ، يتقاضى مرتبه السنوى من الأوقاف الأهلية ويقضى معظم وقته فى المشارب العامة ودور الملاهى . أما قدرى فمن هواة الالعاب الرياضية وموظف بوزارة المعارف . جسم هرقل صلب بأكتاف عريضة وساعدين مفتولين ووجه حليق عريض مورّد الخدود دائماً . له كلام موزون واشارات تدل على الرجولة والنشاط . أما نجيب فمحام لا يكتسب من صناعته . جسم ضئيل ونظّارات سميكة ، يطيل شعر رأسه ويلبس الـكرافت البابيون على طريقة أرباب الفنون الجميـلة ، اذ له بعض الولع برسم الصور الهزلية

وتكلم منصور مجيباً قاسما بقوله :

ـ الحر عام فى كل مكان . جميع الموجودين هنا يكادون يختنقون . . . . وأنا أولهم . اقنع مثلنا بشىء مثلج .

فامتثل قاسم وطلب من الخادم أن يأتى له بطبق من الدندرمه .

وكان يهوّى على وجهه بمنديله الحريرى المعطر . فيفوح منه عطر عبق يصل الى انوف اصدقائه . فصاح منصور قائلا :

ـــ الله ياقاسم . ماهذه الرائحة الجميلة . من أين أتيت بها يا أخى .

وكان قاسم مشهوراً بين الجميع بتفننه وحسن ذوقه فى انتخاب الروائح العطرية . يجمع منها عنده أصنافاً متعددة . هو شاب سليم الذوق ، طروب ، لكنه عصبى المزاج . له ملامح حسنة فى مجموعها ضامر الجسم بقامة متوسطة . يفرط فى الاعتناء بملبسه . وله ثروة لا بأس بها يعيش بها مع والدته عيشة طيبة .

وتجاذب الاخوان اطراف الحديث فى مختلف الشؤون من سياسية الى خصوصية الى رواية النوادر والفكاهات . ولاحظ قدرى على قاسم أنه على غير عادته . ظاهر عليه بعض الانشغال والتفكير . فاقترب منه وقال له وهو يبتسم :

ـ ما يشغلك ياصديقى اليوم . لستَ كعادتك طروبا . أين نوادرك وأخبارك اللطيفة ؟

ـ انى على خير ما يُرام . انما لايخلو الانسان من بعض الهواجس و المشاغل .

ومرّت فترة عاد فيها الإخوان الى حديثهم السابق . واشعل قاسم لفافة من التبغ وجعل يتأمل دخانها . ثمّ أخرج بسكون من جيبه ورقة حمراء لا فرق بينها وبين أوراق الاعلانات الخاصة بالمسارح ودور السنما . ونشرها أمامه على المائدة . وقال لرفاقه بلهجة ظاهرها هزل ودُعابة :

ـ من منكم أيها الاخوان يريد أن يعلم شيئاً عن مستقبله . هذا اعلان عن منجمة فرنسية ماهرة حضرتْ من باريس لتمضى بيننا خمسة عشر يوماً فقط . ألا يريد أحدكم أن يذهب اليها . هيه يا منصور بك . ما رأيك . . وانت ياقدرى بك الا تريد أن تعرف حظك فى ماتش البوكس الآتى . أو انت يانجيب بك ألا تريد أن تطلع على مستقبل قضاياك . . ؟

قال ذلك وهو يقلب بصره فى وجوه رفاقه وفمه يفتر عن ابتسامة ليس فيها جاذبية ولا جمال . فصاح قدرى بملء فيه قائلا :

ـ أقسم أنى قد اكتشفتُ سر مشاغلك أيها الصديق . لاشىء غير هذه المنجمة

فاكفهر وجه قاسم وأخذ يردد قوله بعناد وترفع :

ــ هذه المنجمة ! . حقا ما أجهلك ياقدرى . ماهذه السخافة . أنا أشغل فكرى بهذه العرافة وكلكم تعرفون مبلغ احتقارى لأعمال الشعوذة .

وأخذ نجيب الاعلان وجعل يقرأه بامعان و بصوت مسموع ووجهه يكاد يلتصق به :

« اكتشاف أسرار الحياة . الماضى والحاضر والمستقبل .

تعلن مدام مرمييه الفرنسية قارئة الأفكار المشهورة فى العالم باجمعه أنها حضرت الى مصر وستمضى فى القاهرة خمسة عشر يوماً فقط . واتخذت لها محلا فى عيادة الدكتور « تيفولى » بشارع فؤاد رقم س . هذه السيدة يمكنها بواسطة قراءة كفوفكم أن تخبركم عن ماضيكم وحاضركم ومستقبلكم بطريقة لا يجاريها فيها أحد . فيمكنكم أن تستشيروها فى مسائل الزواج والطلاق والميراث والأعمال التجارية الخطيرة والقضايا المهمة . وغير ذلك . اقصدوا محلها بشارع فؤاد رقم س تسمعوا العجب العجاب . الأسرار محفوظة . والحقيقة مهما كانت مؤلمة لا تخفيها . انتهزوا الفرصة قبل فواتها . الاستشارة يوميا من الساعة ٩ صباحاً الى ٢ بعد الظهر ويوجد صالون خصوصى للسيدات »

ووضع نجيب بك الاعلان على المائدة باهمال وقد انشغل بتنظيف نظارته . فهوى الاعلان على الأرض وكاد يضيع بين الأرجل لولا أن التقطه منصور بك ووضعه باحتراس فى جيبه وتكلم قدرى بك قائلا :

— دجالة فرنسية تريد الضحك على ذقوننا .. ولكن ماذا أرى . ان منصور بك يريد الذهاب لاستطلاع بخته . أتريد أن تجازف بالذهاب الى هذه العرافة يامنصور لتستشيرها فى مسائل الزواج والطلاق والميراث والاعمال التجارية الخطيرة ؟ ! .

فاستاء منصور من تهكم رفيقه عليه ، والتفت اليه بجسمه البدين وقد احمرّت عيناه الضيقتان البراقتان اللتان تشبهان عيون القطط . وقال له :

— أليس الانسان حرّاً فى تصرفاته ؟ . لماذا تهزأ بى اذا اردتُ الذهاب الى هذه العرافة لاستطلع مستقبل حياتى ؟

وتكلم قاسم معززاً رأى صديقه منصور :

— حقاً لكل انسان أن يتصرف حسب رغبته .

فأجاب قدرى قائلا :

— ولكنها تقول فى اعلانها : الحقيقة مهما كانت مؤلمة لا تخفيها . فما رأيكم فى ذلك .

فتجهم وجه منصور وجعل يفكر .

وانفرط عقد الاجتماع بعد قليل فذهب كلّ الى حيث يريد .



— ٣ —

عاد قاسم الى منزله و تناول طعام العشاء مع والدته . وتحادث معها فى مختلف الشؤون . وطرق موضوع العرّافة فأخبرها خبرها . فأصغت الى حديثه ملياً ثم قالت له :

— انى أخشى هؤلاء العرّافات ياقاسم .

— أما أنا فأكرههن ولكنى لا أخشاهن مطلقا .

— لا تذهب اليها ياولدى .

— ومن قال اننى سأذهب اليها .

— ربما فكرت فى ذلك . لأنى أراك كثير الاهتمام بخبرها .

— لم أفكر مطلقاً فى الذهاب اليها ... ولكن اذا طرأت علىّ الفكرة مثلا فانى أذهب لأهزأ بها

— لا تذهب ياقاسم لا تذهب

— ولِمَ هذا الالحاح

— لأنى كما قلتُ لك أخشى شرهن ... انهن ..

ثم صمتت قبل أن تتم كلامها . وتنهدت طويلا ومسحت عينيها المغرورقتين بالدموع

— ولكن ما بك يا والدتى ؟

— لا شيء . لا شيء ... انما هذه الاخبار تؤثر عليّ ... ولكن عدني أن لا تذهب الى هذه العرّافة . عدني وعداً صريحاً

فابتسم قاسم ابتسامة متكلفة عليها مسحة من الكآبة وقال :

— أعدك أن لا أذهب . فكوني مطمئنة من هذه الجهة .

فانحنتْ عليه والدته وضمته الى صدرها بحرارة وشوق كأنها تريد أن تحميه من مكروه يحوم حوله . ثم التفتت اليه وهي تبتسم بين دموعها وسألته قائلة :

— لماذا لم تسهر الليلة مع أصحابك ؟

— أفضّل النوم مبكراً

— هل تشكو من شيء ؟

— مطلقاً . انما أشعر بكسل

— أنتَ على غير عادتك . وتخفي عني شيئاً .

فتظاهر بالسرور وقال :

— أنا على غير عادتي وأخفي عنك أمرا .. !! ما أكثر أوهامك ياوالدتي ؟ ثم تثاءب وتمطى وسرّح شعره بأصابعه . وفتل شاربه الصغير فتلا محكما ثم قال يريد تغيير الحديث :

— لقد عثرتُ على زجاجة رائحة تفوق جميع ما عندي من الروائح . شُمّي هذا المنديل .. ما رأيك ؟

ثم أدنى منديله من أنفها فشمته بانشراح و قالت :

— رائحة جميلة للغاية .

— سوف أشترى منها زجاجتين : واحدة لى وأخرى لك . لقد أعطانى البائع اليوم عينة ، زجاجة صغيرة أفرغتها فى منديلى وعطرت بها يدىّ ورأسى .

ثم تثاءب ونظر فى ساعته فألفاها العاشرة فقام واستأذن من والدته قائلا :

— لقد حلّ ميعاد نومى .

— هكذا مبكرا ؟

— قلتُ لك أني كسلان

— ولكنك وعدتنى أن لا تذهب اليها .

— من تقصدين ؟

— المنجمة

— أوه ... كدتُ أنسى خبرها

ثم قبلها وقبلته وذهب كل الى حجرة نومه .

خلع قاسم ملابسه وارتدى بيجامة النوم . ثم وقف امام المرآة يمشط شعر رأسه . وخرج بعد هنيهة الى الشرفة ليستنشق نسيم الليل العليل الذى جاءت به الطبيعة بعد يوم محتبس الهواء ،

شديد الحرارة . واعتمد على حاجز الشرفة بمنكبيه ، تاركا النسيم يتلاعب بشعر رأسه . وجعل يستعرض حوادث يومه ويستعيد أقوال رفاقه عن المنجمة وتحذيرات والدته منها . ومكث على هذه الحالة وقتا طويلا لم يغير فيه وقفته . وكان يشعر أثناء ذلك بانقباض لا يعرف سببه . وأخيرا اعتدل وناجى نفسه قائلا :

— لستُ رجلا اذا رهبتُ هذه العرّافة ...

ثم تظاهر بالسرور وأخذ يردد قوله :

— ما أحسن هذا الهواء .

ودخل حجرته ورأسه يموج بمختلف الهواجس .

أما والدته فكانت فى هذا الوقت جالسة متربعة على الكنبه وأمامها علبة التبغ تلف منها لفائفها وتدخنها الواحدة بعد الاخرى وهى غارقة فى تفكير عميق ، تتنهد بحرارة بين فترة وأخرى كانت حادثة وفاة ابنتها الوحيدة منذ خمس وعشرين سنة تتمثل أمامها الساعة بتفاصيلها الدقيقة كأنها حدثت بالأمس . كان قاسم فى ذلك الوقت يبلغ الخامسة من عمره وكانت سعاد شقيقته المتوفاة تبلغ السابعة . كانت فتاة جسورة كثيرة اللعب شغوفة بمشاكسة الناس والسخرية منهم . وكان قاسم يشاركها لعبها ومشاكساتها . وكانت تتردد على المنزل فى ذلك الحين امرأة عجوز مشوهة تلبس السواد

دائما وتدّعى معرفة الغيب ، تأخذ الاحسان من ربة القصر ومن خادماته وخادميه ، وتكشف للجميع فى بعض الأوقات الفأل بورق الكتشينه أو الودع . وكانت سعاد اذا رأتها لاتفتأ تعاكسها وتسخر منها حتى تضطرها الى الهرب من المنزل ولكن فى يوم من الأيام ضاقت المرأة ذرعا بمعاكسة الفتاة لها وتغلبت عليها حماقتها فلم تعد تفكر فى الخير الذى يأتيها من صاحبة المنزل وساكنيه وانهالت على الفتاة شتما وتقريعا ثم تنبأت لها بموتة فظيعة قريبة الوقوع . وشاء القدر أن تصدق العرّافة فى نبوءتها فلم يمض أسبوع على هذه الحادثة حتى وقعت الفتاة من أعلى شجرة تسلقتها فى حديقة القصر فتمزقت أحشاؤها وشج رأسها ، وماتت على الأثر .



— ٣ —

وفى صباح الغد قام قاسم من النوم مبكراً . وأتم زينته وارتداء ملابسه كالعادة . وكان يظهر على محياه العزم على تنفيذ فكرة استقرت فى رأسه . وبعد أن تناول طعام الافطار أخبر والدته أنه على موعد هام مع أحد أصدقائه . وخرج من منزله وركب عربة أجرة قاصداً محل « مدام مارمييه العرافة » فى شارع فؤاد رقم س . وكان يبتسم أثناء الطريق وينظر الى الوجوه باطمئنان . وناجى نفسه بقوله :

— سوف أهزأ بها ، هذه العرافة القبيحة الملتحفة بالسواد .

ووقفت العربة أمام مدخل البناية الكائنة فيها عيادة الدكتور « تيفولى » أو بالأحرى محل العرافة الفرنسية . والتفت الحوذى الى قاسم وقال له :

ـ هذا المحل يا سيدى

ـ حسنا . ولكن هل أنت متأكد أن عيادة الدكتور هنا .

ـ نعم يا سيدى ومحل العرافة الفرنسية الجديدة أيضاً

ـ أنت تعرفها ؟

ـ لقد احضرت اليها عدة زبائن من علية القوم .

ـ ليستطلعوا بختهم . أليس كذلك ؟

ـ طبعا . ويقال إنها ماهرة جدا . والمدهش فى أمرها انها لا تخفى شيئاً . سيان عندها الحسن والسوء . اظنك تقصدها ياسيدى لان الدكتور فى الاجازة .

ـ . . صحيح الدكتور فى الاجازة . .

ـ وتريد ان تستطلع بختك ؟

ـ انى ياسطى لا أصدق هؤلاء العرّافات . وقد جئت لاهزأ بها .

ـ يقولون انها امرأة مدهشة وفظيعة . . وأيضا مخيفة . . .

فقاطعه قاسم وقد أخذ صوته يتهدج بالرغم منه

— شكلها مخيف وتلبس السواد . . أليس كذلك ؟

— ويقولون ان لها تأثيرا عظيما على محدثها . لقد سمعتُ حديثا طويلا عنها بين اثنين من زبائنى أوصلتهما أمس الى منزلها

وأعطى قاسم للسائق أجرته . ومشى صوب مدخل البناية وهو يقول لنفسه مرددا :

— انها مخيفة وتلبس الملابس السوداء . . لا أدرى لماذا أريد مقابلتها . . لأهزأ بها . . ولماذا أريد أن اهزأ بها . . الا استطيع العودة . وهل يرانى السائق .

ثم التفت خلفه فوجد السائق فى مكانه يراقبه . فأسرع الخطا وأخذ يصفر بدون انتظام حتى دنا من بواب العمارة فسأله قائلا :

— هل هنا عيادة الدكتور تيفولى ؟

— اجل ياسيدى . ولكن الدكتور ...

— فى الاجازة أعلم ذلك .

— وتقصد مقابلة العرّافة مدام مارمييه ؟

— . . طبعاً . طبعاً .

— فى الدور الأول . الشقة التى على اليمين

— مرسى

وصعد الدرج بلا وعى كأنه يعرف المكان من قبل . وامام الشقة التى على اليمين وقفت قدماه . ولكن قلبه كان يدق بشدة فى هذه اللحظة . وكأنه قد صحا من سُبات عميق على أثر صدمة عنيفة . ورأى على الباب يافطة نحاسية منقوشاً عليها بالكتابة الافرنجية السوداء : « الدكتور تيفولى حكيم اختصاصى للامراض الباطنية . ومولّد » . وتحت هذه اليافطة معلق قطعة من الورق المقوى ذات أطار اسود مزخرف ، قرأ عليها اسم العرافة وميعاد زيارتها .

وقف قاسم برهة متردداً . ثم قال مناجيا نفسه :

ـ ولِمَ لا أحضر لزيارتها فى فرصة أخرى. . مثلا بعد الظهر.
وسمع جلبة فى الطابق فكبح بالرغم منه ورفع قامته ثم ضغط على الجرس وأخذ يصلح رباط رقبته وياقته بلا مناسبة. وبعد برهة قليلة فُتح الباب وظهر على عتبته غلام سودانى ذو جلباب أبيض وحزام أحمر. فسأله قاسم قائلا:

ـ الدكتورة هنا ياشاطر. أم ليست هنا؟

ـ هنا ياسيدى تفضل. ولكنها مشغولة قليلا.

ـ اذن يمكنى أن أحضر بعد الظهر.

ـ ان لديها سيدة مصرية تخرج بعد قليل. تفضل ياسيدى تفضل.

وقاد الخادم قاسما الى حجرة الانتظار المخصصة للرجال. وهى بذاتها حجرة انتظار مرضى الدكتور تيفولى. ثم خرج وأقفل البابَ خلفه. فشعر قاسم بوحشة غريبة استولت عليه اذ كان المكان مظلماً صامتاً خالياً من الزوار. وجلس على أول مقعد صادفه فى طريقه وقد أخذ الندم يطرق قلبه. ولما اعتاد الظلمة والوحدة سُرّى عنه قليلا فاخذ يفحص الحجرة ومحتوياتها. فألفاها حجرة ذات أثاث جيد ونظيف. منسق تنسيقاً بديعا

يشهد بذوق صاحبه . ولـكنها لا تمتاز بشيء يُشعر الزائر أنه في محل طبيب أو عرّافه الاّ اذا استثنينا منضدة لهـا رائحة العقاقير ملقى عليها باهمال مجلات فرنسية بين مصورة وغير مصورة .

ولم يطل انتظار قاسم طويلا اذ حضر الغـلام وأخبره ان السيدة في انتظاره . فقام وسار خلفه حتى وصل الى حجرة العرّافة الخاصة . وهنا عاد الخادم أدراجه بعد ان أشار لقاسم أن يدخل .

ودخل قاسم الغرفة بخطوات متمهلة حذرة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة متكلفة فيها محاولة للظهور بمظهر الواثق بنفسه . واتجه نحو المـكتب العريض الـكائن في احـد أركان الحجرة ؛ اذ تبين خلفه شبح سيدة جالسة مشغولة بالـكتابة . ولمّـا اقترب من المكتب كلمته السيدة بالافرنسية بدون أن ترفع رأسها :

ـ تفضل ياسيدى بالجلوس . وانتظر قليلا ريثما أنتهى من عملى هـذا . لحظة فقط .

قالت ذلك وأشارت له على مقعد مريح ذى مسندين بجوار المـكتب . فشكرها بالفرنسية وجلس ثم وضع رجلا على أخرى . وبدأ يجيل بصره الحائر في الغرفة فاذا بالسيدة تكلمه فنظر اليها فوجدها ما زالت منكبة على عملها . وقالت بدون أن ترفع رأسها :

ـ لا تخشى شيئاً ياسيدي ولا تضطرب . هدّىء روعك .

انك فى مكان أمين .

فحملق قاسم فيها بعجب وأراد أن يجيبها ولكنه لم يفعل . وكانت جملتها تطن فى أذنيه طنينا أشعره بخجل عظيم . وعادت العرافة الى الكلام وهى ما زالت جادة فى عملها . فقالت :

ـ يوجد على المائدة الصغيرة بجوار مقعدك جريدة مصورة هزلية . تستطيع أن تسلّى بها نفسك فيزول اضطرابك .

ـ فحوّل قاسم بصره الى حيث قالت وأخذ الجريدة بحركة ميكانيكية . ثم أجابها بصوت خافت قائلا :

ـ أشكرك . أشكرك ياسيدتى ولكنى لستُ مضطربا .

وجعل يتصفح الجريدة على عجل وبلا انتظام . وكان يناجى نفسه قائلا :

ـ ان صوتها رقيق عذب ... ولكنها علمت باضطرابى مع أنها لم تر للآن وجهى ... يظهر لى أنها حلوة الحديث ومؤدبة .

ثم طوى الصحيفة وأعادها الى مكانها . وجعل يفحص الغرفة ومحتوياتها فحصاً سريعاً . فلم يلفت نظرَه المضطرب الاّ ستائرُها السود المسدلة على الأبواب والنوافذ . ولم يكن قد انتبه بعد الى أن النوافذ جميعها مقفلة وان نور الكهرباء يضىء المكان . ووقع

بصره بغتة على جمجمة بشرية موضوعة على حافة المكتب ومركزة على قاعدة رخامية فسرت في جسمه قشعريرة . وادمن النظر الى هذه الجمجمة وأخذ يسائل نفسه عنها . فاذا بالسيدة تكلمه ، وهي ما زالت على حالها المعروف . وقالت :

ـ هي جمجمة أمي . لا تجزع منها . كانت سيدة طيبة القلب عفيفة . ومحترمة .

فاهتز قاسم بالرغم منه وانعقد لسانه فلم يحر جوابا . ووضعت السيدة جانباً القلم ورفعت رأسها من على الورق وقامت بنصف قامتها من على مقعدها ومدت اليه يدها مسلمة . فسلم عليها باحترام واذا به يتمتم مناجيا نفسه بالرغم منه :

ـ انها جميلة .. ولكنها تلبس السواد .

لقد كانت في الخامسة والاربعين ، حسناء ، تجيد الزينة ومقصوصة الشعر على الطريقة الغلامية الجديدة (الاجارسون) وفي لحظة تركت محلها خلف المكتب وجاءت قباله . فاذا هي الى القصر أقرب منها الى الطول . والى النحافة أدنى منها الى البدانة . وكانت تبتسم ابتسامة المجاملة ، خالية من كل تكلف . وادنت مقعدا صغيراً من مقعده ، جلست عليه بعد ان وضعت

المائدة الصغيرة بينهما . وتكلمتْ وهى ما زالتْ تبتسم بلطف . وقالت :

— حضرتك تجيد الفرنسية . اليس كذلك ؟

— أستطيع أن أفهم من يكلمنى بها . وان اعبر بها عن غرضى .

— ولكنك تجيدها ولهجتك فصيحة . أين تعلمتها ياسيدى ؟

— فى مدرسة الجزويت .

— مدارس عظيمة تخدم لساننا فى الشرق خدمات صادقة .

وكانت تتكلم متمهلة بلهجة واضحة ونبرات رخيمة وبالقاء منتظم . فكان لكل كلمة أو جملة لونا خاصا يعبر عنها تعبيراً دقيقا . .
والتفتت الى الجمجمة وقالت :

— قلت لك ياسيدى هذه جمجمة أمى . ولها حكاية طويلة ليست من موضوع كلامنا الآن . حسبي أن أقول لك انها تصحبنى اينما اذهب . فقد دارتْ معى حول الأرض فى رحلاتى السنوية . وشاهدتْ معى ممالك عديدة وتعرّفتْ بأشخاص مختلفى الاجناس هى صديقتى التى استمد منها وحى افكارى والتى تكشف لى عن اسرار الحياة كلها . هى تشعر مثلى وترى مثلى وان كانت لا تتكلم .

فابتسم قاسم ابتسامة خفيفة وتحوّلتْ عيناه بسرعة مغناطيسية

الى الجمجمة . وعادتْ العرّافة الى الكلام بلهجتها السابقة المنتظمة وصوتها الرخيم :

— انها ياسيدى تشعر مثلى وترى مثلى وان كانت لا تتكلم .

وكررتْ هذه الجملة مرة اخرى . فلم يتمسم قاسم هذه الدفعة ولم يحوّل عينيه نحو الجمجمة . وبدأ يشعر بشيء من الرعب . ثم أتمت السيدة حديثها قائلة :

— انها ساعدى الأيمن . لا أستطيع العمل بدونها . فاذا قُدّر لى ان افقدها فسيكون بفقدها نهايتى . ولقد كنت استشيرها الساعة قبل دخولك فاخبرتْنى عنك و . .

فقاطعها قاسم يسألها باستعجال ولهفة :

— وماذا قالتْ لكِ عنى ؟

— تمهل ياسيدى فسأخبرك بكل شيء . . الوقت أمام متسع ... اخبرَتْنى أنك جئتَ الى هنا مدفوعا برغبة شديد لمعرفة مستقبلك وان كنتَ قد أوهمتَ نفسك ومن هم حول انك تريد أن تهزأ بى .

فظهر الارتباك على قاسم ولكنه حاول الانكار . وأخر منديله الحريري من جيب سترته الخارجى ومسح به وج الممتعض بحركة عصبية ظاهرة . وكان يناجى نفسه بقوله :

— لا أدرى لماذا جئتُ الى هنا ... لا أدرى ... لا أدرى .

— لأن هذا مقدّر عليك .. ألا تعتقد فى القضاء والقدر ؟

فحملق قاسم فى وجهها مذعوراً وشعر بتفكك مفاصله وارتجافها . وتيقن انه مغلوب على أمره . فألقى سلاحه طائعاً .

ومدّت العرّافة يدها وضغطت على زر كهربائى على المكتب فانطفأ نور الحجرة . ثم ضغطت على زر آخر فأضاء مصباح صغير على المكتب نفسه ، مغطى بمظلة سوداء . وامسكتْ يده اليسرى وادنتها منها وهى تقول :

— يجب ان نبدأ العمل ولا نضيع الوقت فى الكلام .. انت تريد معرفة مستقبلك . اليس كذلك ؟

قالت ذلك وهى تفحص كفه بتمعن . وكانت تستعين بين فترة وأخرى بمنظار له مقبض ذهبى . فلم يتكلم قاسم . وعادت السيدة الى اتمام حديثها كأنها تكلّم نفسها :

— خيوط متعرجة كثيرة .. هذا دليل على ....

وصمتت واخذتْ تنظر بامعان الى نقطة معينة . ثم قالت بصوت منخفض :

— هاهو خط الحياة .. هاهو .. غامض .. مُحاط بسهوم .. ولكنه يخترقها ... ثم ...

وتوقفتْ عن الكلام . فابتلع قاسم ريقه الجاف وسألها :

— ثم ماذا ؟

فلم تجبه وعادتْ تفحص الكف . واخذتْ تتكلم عن امور اخرى عادية ثم شرعت تسأله بعض اسئلة بسيطة .. وصمتتْ طويلا وهى تفحص يده باهتمام . ثم جعلتْ تحدّث نفسها بصوت مسموع :

— خط الحياة مُحاط بسهوم كثيرة .. ولكنه يخترقها .. ثم ..

وتوقفتْ عن الكلام ايضاً فصاح قاسم بصوت مرتجف :

— ثم ماذا ياسيدتى . ثم ماذا ؟

— الا تريد أن أخبرك عن ماضيك ؟

— ومستقبلى ؟

— فلنبدأ بالماضى .

— أفي مستقبلى شيء مخيف ؟

— لقد كانت لك أخت ياسيدى - فى الزمن القديم .

— صحيح

— وماتتْ ميتة شنيعة

— صحيح .. صحيح .. ولكن .. ولكن أريد أن تخبرينى عن مستقبلى . لقد أتيتُ هنا لأعلم عنه كل شيء .

— ليس كل شيء ؛ ولكن بعض الشيء .

— ان مستقبلي مخيف ؟

— مخيف للغاية .

— ونهايتي ؟

— محزنة وموجبة للشفقة ... خير لك ياسيدي أن تخرج

— أخرج ! .. ماهذا الكلام .

— اذن أنتَ مصمم على سماع كل شيء .

— كل شيء . كل شيء

وكان ممتقع الوجه متقاص العضلات يأتي بحركات عصبية كثيرة . أمّا هي فكانتْ هادئة ووجهها عليه مسحة الابتسام . وتكلمت بصوت حلو كأنها تغازله :

— يحزنني ياسيدي أن أخبرك بأنك ستموت قتيلا .

فصرخ قاسم بالرغم منه قائلا :

— أموتُ قتيلا !! .. أنا أموت قتيلا .. هذا كذب .

— وبعد أربعة أشهر فقط

— كذب . كذب . أنت كذّابة .... ولكن . أحقا ذلك ياسيدتي ؟

— ستموت ياسيدي قتيلا بعد أربعة أشهر . ربما بيد لص .

أو تحتَ عجلات القطار أو تحت حائط ينهدم عليك .. لا استطيع ان اقول غير ذلك .... لقد انتهت الزيارة ياسيدى .. وعندى اشخاص ينتظرون

— ولكن هذا غير ممكن . قولى شيئاً غير ذلك .

— وكيف . أُمى لا تغيّر كلامها .

وأشارتْ الى الجمجمة . ثم أشعلتْ نور الغرفة وقرعتْ الجرس فدخل الخادم فأخبرته أن يُدخل الشخص التالى . ونهض قاسم واتجه نحو الباب بذهول . ولكنها اسرعتْ اليه وقالت له بكل رقة وأدب :

— اجرة الزيارة ياسيدى . لقد نسيتَها

— كم ؟

— ماية قرش .

— خذى .. هذا ثمن حكم الاعدام علىّ ...

فرنّت ضحكتها عاليا . واقفلت الباب خلفه .



— ٤ —

خرج قاسم من منزل العرّافة ذاهلا منقبض النفس . وسار فى الطريق تقوده قدماه الى حيث لا يعلم . وبغتة تنبه الى وعيه وصاح في نفسه ثائراً :

— هذا كذب .. كذب محض . هل أنا مجنون لأصدق كلام هذه المشعوذة .

وشعر بكره شديد لهذه العرّافة . وهاجت ثائرة نفسه عليها فقال مناجياً نفسه بحدة :

— لا أدرى كيف تترك الحكومة أمثال هؤلاء المشعوذات يسلبن الناس نقودهم وينغصن عليهم أوقاتهم . كان يجب ان يُمنعن من دخول القطر ... هذا نصب واحتيال .

ثم توجه الى قهوة من قهاوى شارع فؤاد . وطلب مشروبا مثلجا ثم جعل ينظر الى حركة الشارع ، وشارع فؤاد فى هذا الوقت كله حركة وحياة . فلم يمض عليه وقت قصير حتى شعر بشيء من الراحة . وتنفس طويلا وهو يتسلى بما يحدث أمامه . فالمركبات على اختلاف أنواعها رائحة غاديه . وصيحات كمساريي الأمنيبوس وهم يصيحون على المارة بكلماتهم المعتادة : « العباسية . الجيزة .

شبرا . . الخ » تختلط بصيحات صبيان الجرائد وبمناداة الباعة الذين يمرون على القهاوى ببضائعهم يعرضونها على الجالسين ، مُلحين فى شراء شىء منها . هذا بائع الأمشاط والمقصات والمطاوى يقف أمامك كأنه صنم لا يتحرك ولا يتركك الا اذا نال منك بضعة قروش نظير شىء يقدمه اليك . وهذا بائع الكتب يحمل عاموده الطويل وينادى بصوت خافت رزين كأنه فيلسوف استفاد من مطالعاته . وهذا بائع الفزدق يحمل قفته ويشخلل لك بما فيها وهو يبتسم ابتسامة اغراء وتحريض قائلا : « بالجوز والا بالفرد يازباين . » . الى آخر ما هنالك من هذه المناظر المختلفة التى يحظى بها روّاد القهاوى . وانتهى قاسم من تناول مشروبه المثلج فانتعش وهدأت ثائرة نفسه فنظر الى البائعين نظرة فيها شىء من الرضى والانشراح . والبائع له نظرة بسيكولوجية يعرف بها رغبة الزبون . وهو فى ذاته يصح أن تدعوه عالم نفسانى (بسيكولوج) اختبر نفسية الناس على اختلاف مذاهبهم وطباعهم وعرف الطرق التى يستطيع بها أن يتصل برغباتهم . فلم يكد قاسم ينظر اليهم نظرته السالفة حتى انهالوا عليه ، الواحد بعد الآخر . فلعب مع بائع الفزدق « بالجوز والابالفرد » . واشترى مرآة ومقصا وعدة امشاط لا حاجة له بها مطلقاً . وقدّم له بائع التفاح أقة وزنها له

ولفّها فى قرطاسها بدون علم منه . وجاءه أخيرا بائع الكتب الفيلسوف ، يسير بتؤدة وتأدب ، بعد أن رمقه بنظرة من بعيد فعلم أنه غنيمة باردة . أقبل عليه بدون دعوة وقرأه سلاما طويلا تجلى فيه الخشوع مع الاجلال . ثم شرع يرص بضاعته على المائدة يزاحم بها أقة التفاح وكوم الفزدق وربطة الامشاط . ثم مسح شاربه الاشيب وبدأ يتكلم برزانة كانه مُحاضر معتلٍ منبر الخطابة فى احدى الجامعات . وقال :

— عندى لك اليوم ياسيدى البيه كتب فى مختلف العلوم والفنون يمكننى أن اقدمها لك بنصف ثمنها الاصلى أو بأقل من النصف . فرصة يجب أن لا تضيعها . هاك مثلا كتاب مختار العقد . ثمنه أربعون قرشاً فى المكاتب ولكنى أبيعه لك لاجل خاطرك بخمسة عشر فقط . وانظر الى هذا الكتاب الانجليزى المذهّب يقولون انه ديوان شاعر كبير من شعراء الانجليز يماثل شوقى بيه عندنا . هذا يمكنى أن اقدّمه لك بعشرة قروش فقط مع أن ثمنه ستة شلن .

وشرع يُقلّب أمام قاسم عامود الكتب وهو يصف له كل كتاب وصفا خاصا . ولم يتزحزح من مكانه حتى اشترى قاسم منه ثلاثة كتب نقده ثمنها ثلاثين قرشاً .

وعاد قاسم الى منزله وقابل والدته وأخبرها ، كأنه يلهو بكلامه معها ، أن بعض رفاقه ذهبوا به الى العرّافة بالرغم منه حيث حظى منها بخبر سيء عن مستقبله . وأخذ يؤكد لها أنه لم يهتم ولن يهتم بهذه النبوءة السخيفة . وبعد أن تناول طعام الغداء ونام بعد الظهر نوماً مثقلا بالأحلام المزعجة خرج من المنزل الى « جروبى » ليقابل الاخوان كالمعتاد .



— ٥ —

وانقضت الأربعة أشهر وحلّ الميعاد الذى حدّدته العرافة لمقتل قاسم .

مضى الشهر الأول وقاسم يجاهد فى سبيل التخلص من أوهامه واحزانه . فكان تارة ينتصر وطوراً ينهزم . ففى أوقات انتصاره حينما تتغلب حكمة عقله على أوهام نفسه كان يُشَاهَد طروبا لا يسكت فمه عن الغناء أو رواية النوادر والفكاهات . يذهب صباحا وهو على هذا الحال الى القهوة التى اعتاد أن يجلس فيها فيجتمع حوله الباعة ويسلبون مامعه من نقود . وكثيراً ما يتجاذب معهم اطراف الحديث فيقصون عليه مختلف القصص ويروون له افكه النوادر . ويذهب الى جروبى بعد الظهر حيث يقابل رفاقه وهو مزين معطر يقبّلهم واحداً واحداً ويأمر خادم المحل أن يأتى لهم عما يرغبون على حسابه ، يفاكههم بأخباره السارة ورنين ضحكه يملأ المكان . أما فى أوقات يأسه واضطرابه حينما يلبس للدنيا منظاره الاسود تراه اما فى حجرته لا يبرحها وقد برّح به التفكير وألمّ برأسه صداع حاد ، أو فى قهوته جالساً جلسة الأسد المقهور يحاول أن يحبس زفيرا حارًّا ثائراً فى نفسه زفير الرغبة لينوح باكيا أو ليصرخ

شاتماً . فى هذا الوقت لا يقترب منه أحد والاّ خاطر ببضاعته وناله بعض ركلات مؤلمة . واذا ذهب الى جروبى بعد الظهر ليقابل الاخوان ، قابلهم بوجه العابس الغضوب . وانتحى ناحية منفردة لا يتكلم . واذا تكلّم فعن الموت الذى ينتظر كل كائن حى على وجه الارض ، وعن فساد نظام العالَم الذى تعم فيه المظالم . ولا تنتهى عادة هذه الازمة الا بنوبة بكاء حاد يطلق فيها العنان لآلامه . وكم تعذبت والدته من أجله . فكانت تهرع الى حجرته مرتاعة حينما يطرق سمعها نواحه العالى فتحتضنه كما كانت تحتضنه طفلا ، وتغمره بقبلاتها مازجة دموعه بدموعها .

أمضى قاسم الشهر الاول لا ترجح كفة سعده على كفة نحسه فى ميزان حياته . ولكن ما كاد يقبل الشهر الثانى حتى بدأ نحسه يتغلب على سعده . وقوِى اعتقاده فى اقوال العرّافة فخيّم عليه حزن عميق وآلام صامتة . وقلّ خروجه من المنزل فلم يعد يراه الرفاق الا نادراً .

ولما حلّ الشهر الثالث تطورت نفسيته فغلب عليه الاستسلام فكان يُشاهَد واجما ، لا يدلّ مظهره على حزن أو فرح . واعتراه نوع من التقشف والزهد وميل الى العبادة والتكفير عن سيئاته . فأكثر من الذهاب الى المساجد يؤدى فيها فروض الصلاة . وأمّ

أضرحة الاولياء يزورها ويفرّق العطايا على فقرائها . وأهمل زينته وهجر عطوره وكفّ عن الذهاب الى القهوة وجروبي . وكثيراً ما كان يقصد القرافة ليزور موتاه . واتجه فكره الى اختيار مكان بجوار قبر والده ليعده قبراً له . ومن ثمّ أخذ يفاوض العمال ليقيموا له قبراً من الرخام الثمين ، مزينا بالآيات القرآنية ذات الخط الجميل . وكان اذا كلمهم لا يختلج صوته باضطراب أو انفعال ، هادىء مطمئن كانه يفاوضهم فى بناية منزل فاخر له . وربما ناقشهم فى التكاليف كانه يناقش كاتب حسابه فى مصروف منزله . وزرع فى المقبرة أنواعا من أشجار الظلال ومجموعة من الورود كان يتعهدها بنفسه فى رضى تام . ثم جعل يصلح ما تهدّم من المقبرة ويجهز غرف الجلوس بكل ما يدعو الى راحة الزوار .

وانقضى هذا الشهر فى خير وسلام من غير جلبة ولا نواح . وهلّ الشهر الرابع فاذا بصاحبنا ملّ التقشف والعبادة ورغب عن الاستسلام . رأى الايام تمضى سراعا ووجد نفسه يجري معها الى نهايته المؤلمة . شهر واحد باق له فى هذه الدنيا ثم يرتحل بعده الى عالم الموت ، تاركا خلفه مسرات الحياة ، وهو فى سن المسرات والاحلام . فثار على نفسه وعلى الدنيا بأجمعها . ومن ثمّ بدأ « رد الفعل » يتجلى فى كل أقواله وأعماله . فاذا به يقود نفسه الى

هاويات الضلالة والفجور ، مستسلما لغرائزه الحيوانية . فجرّب كل أمر منكر وأتى كل معصية . وكان شهرا رهيبا لم يعلم فيه قاسم ليله من نهاره فكأنه يعيش مع الابالسة يشاطرهم حياة الضلال والمفسدة وأفاق من هذه الغفلة وهو اقرب الى الموتى منه الى الاحياء ، والى المتوهين منه الى العقلاء . جسم ضامر كهيكل المومياء وعيون غائرة . تائهة منطفئة اللمعة . وكلام أقرب الى الهذيان . فاضطر الى ملازمة فراشه واستدعاء الطبيب ليعالجه .

لقد انتهت الاربعة الأشهر وأقبل الشهر الخامس وهو الشهر الذى سوف يهوى على رأسه سيف القضاء فى يوم من ايامه الاولى فبلغ ذعره مبلغاً شديداً ، متخيلا فى كل لحظة ان ساعته دنت . ولم يعد ينام الاّ نوما مضطربا متقطعا وهو يهجس برغبته فى الحياة وكرهه الموت . واذا ما صحا جعل يفكر منزعجاً فى امر الميتة التى سوف يلقاها . فاذا به يتخيل سقوط سقف الغرفة عليه اومداهمة اللصوص له . او يتوقع حدوث زلزلة هائلة تدك المنزل دكاً . فاستدعى المهندسين والعمال ليدعموا سقف الغرفة والحيطان ويستبدلوا اقفال الابواب القديمة باقفال حديثة الطراز . ثم حصل على مسدس حشاه بالرصاص واخذ يتمرن فى الغرفة على الرماية ، وألحقَ بخدمته الخفراء ليحرسوه . وكان يقوم من فراشه بالرغم

من هزاله يستند على والدته أو على أحد خدّامه فيبحث بنفسه في الغرفة بحثاً دقيقاً ، يفتش في أركانها ومخابئها ، ينظر تحت السرير والموائد والمقاعد . ولا يعود الى مكانه الا اذا تأكد أنها خالية من اللصوص . وكان يصحو من النوم صارخاً وقد خُيّل له في الُحلم أنه تحت عجلات القطار . وكان يمسك الساعة في يده يراقب عقربيها باهتمام وخوف ويصيح قائلا :

— ان الدقائق والساعات تمر بسرعة لا يتصورها العقل . . أهكذا تفر الحياة مني ؟



- ٦ -

وفى مساء اليوم السادس بلغ ذعره أقصاه . فجمع حوله كلّ من فى المنزل ليأتنس بهم . وكان ينصت لأقل حركة تحدث فى الحجرة . فاذا طرق سمعه همسة صغيرة أو كحة مكتومة بدرت من صاحبها بالرغم منه ، أجفل صارخاً مرتاعا . فاضطر من كان فى الحجرة أن يلزموا الصمت التام وأن يقفوا كالاخشاب بلا حراك . ولكن هذا لم يمنع قاسما أن يشاهد اشباحا تظهر أمام ناظره وتختفى وأن يسمع نقراً على الأبواب والنوافذ ، وصراخا وندباً وقرعاً على الدفوف (صوتَ مقرىء يرتّل القرآن فى مأتم .)

واختفى كل شىء حوله . وأخذ يحدق بعينين تائهتين فى شىء مبهم امامه ، لا يحول نظره عنه . وكان صوت مرتل القرآن قد طغى على الاصوات الأخرى فلم يعد يسمع قاسم سواه . فتوهم ان القرآن يُرتّل فى مأتمه وانه قد انتقل الى عالم الارواح . فشمله هدوء عظيم . وبدأ فمه ينفرج عن ابتسامة لطيفة تعبّر عن انقلاب نفسه . وفى لحظة واحدة تلاشى من قلبه الخوف من الموت وحلّ مكانه الاطمئنان . ورأى الموت شيئاً ليس مخيفا ولا كريها بل بالعكس

محبوبا جميلا : انتقال بسيط لا يكاد يشعر به الانسان . حياة أخرى . وجود آخر ينعم فيه بعيش هادىء .

وكان الضعف قد بلغ عنده منتهاه فاستسلم لنوم لذيذ كان يخدر جسمه رويداً . فاذا بأعضائه تسكن مرتاحة تحت تأثير ألم شهى يشعر به الانسان المتعب اذا غشيه النعاس تحت يد الدلاك واذا بشفتيه الجافتين ترتجفان ووجهه الممتقع يتقلص ببطء وجفنيه المطبقين يهتزان هزات عصبية . . وكان النعاس المجهول ينشر لواءه السحرى على هذا الجسم البالى المهدم . فاذا بهدوء شامل وسكون تام .



﴿ تم الكتاب ﴾

ويليه

الحاج شلبي

مجموعة أقاصيص مصرية مزينة بصور عديدة

المطبعة السلفية - ومكتبتها
لصاحبيهما : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح قتلان

القاهرة سنة

١٣٤٧ و ١٩٢٨

فهرس الكتاب

فهرس الصور

جميع صور الكتاب من عمل

حسين افندى فوزى الرسام



ما صدر من مؤلفات محمود تيمور

(١) الشيخ جمعة

ظهرت حديثاً الطبعة الثانية منه منقحة ومزينة بالرسوم

(٢) عم متولي

نفدت طبعته الاولى . وسيعاد طبعه المرة الثانية منقحا وبصور عديدة .

(٣) الشيخ سيد العبيط

أوشك أن ينفد . الكتاب مُصَدَّر بمقدمة طويلة عن نشوء وتطور البلاغة القصصية

(٤) رجب افندى

والمحكوم عليه بالاعدام

قصتان مصريتان عصريتان تصوران حالات الفزع والرهبة وفيهما تحليل للنفوس المريضة.

(٥) الحاج شلبي

مجموعة أقاصيص مصرية تحت الطبع
وغير ذلك من المجاميع التى تحت التحضير.



جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الكلمة	الخطأ	الصواب
٥	١٣	١٠	الصيرة	الصغير
٤٢	٦	١١	لا تسأل عنها	لا تسأل عنها شيئاً
٥٩	١٤	٨	نخذله	نخذلته
٨٠	٣	٦	بنور	بالنور
٨١	١٣	١	شعر	وشعر
١٢١	الاخير	٥	جاءت	جادت
١٢٤	١٢	٢	هذا الحل	هذا هو الحق
١٣١	٥	٦	تعلما	تعلمتها
١٤٦	٨	٤	(صوت مقرىء الخ..)	وصوت مقرىء الخ..
١٥٥	٣	٤	في القطر المصري	في القطر المصرى والخارج



